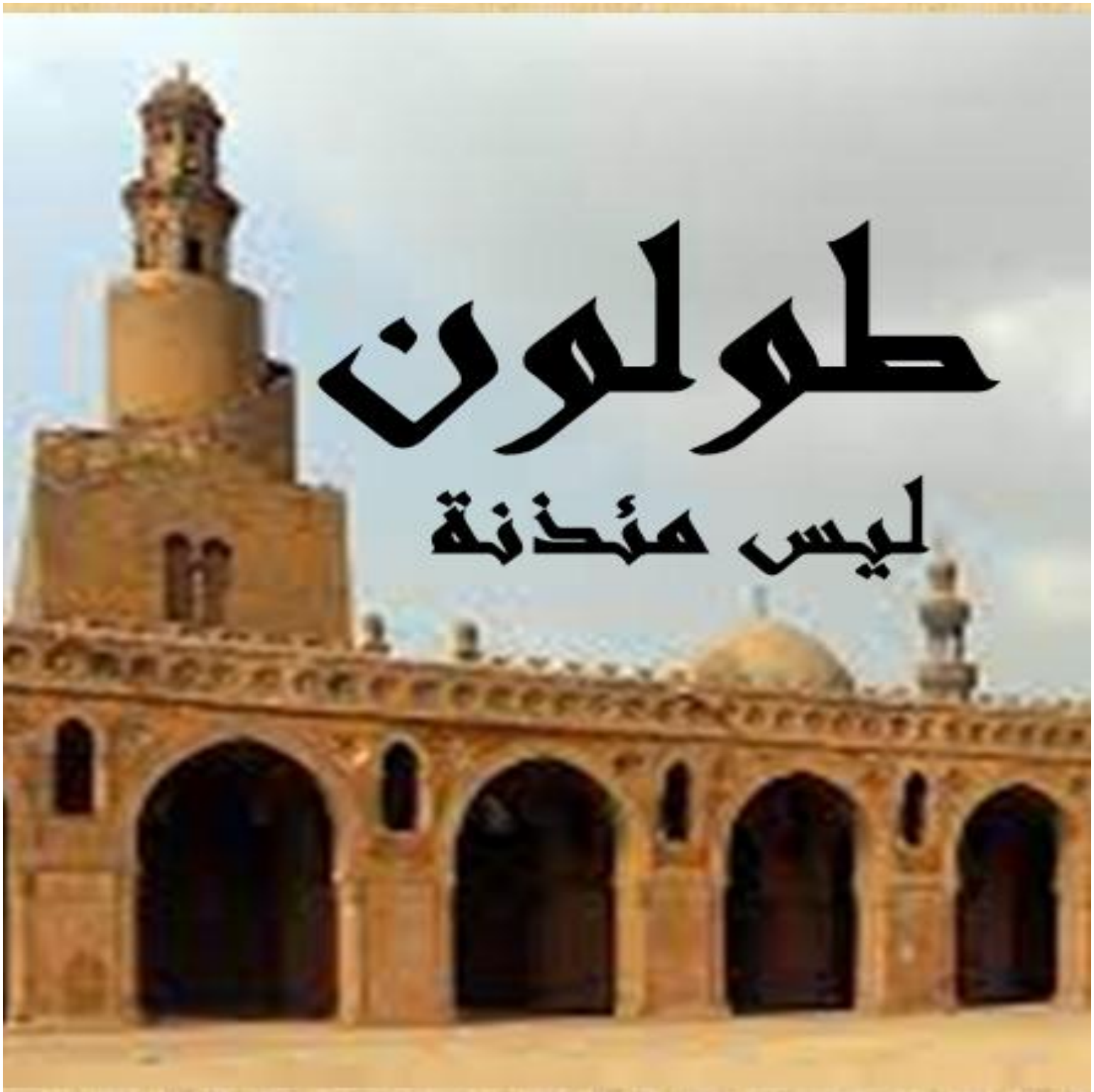

طولون

ليس مئذنة

رواية تاريخية

بقلم

محمد عرموش

طولون

ليس مئذنة

رواية تاريخية

historical novel

بقلم

محمد عرموش

المئذنة الحلزونية

اقترب الأب وابنه من جامع ابن طولون بعد أن تجولا معًا في حي السيدة زينب ، وكان الأب يوضح لابنه ما يعرفه عن تاريخ كل أثر يمرون به ، ويناقشه في العبر والدروس المستفادة من كل حدث تاريخي يذكره ، ثم وجد الأب مكان يصلح للجلوس فجلس مع ابنه بجوار الجامع وكأنه يستعد ليتحدث حديثًا طويلًا ، ثم سأل اينه وهو يشير إلي الجامع :

– هل تعرف يا بني اسم هذا الجامع الكبير العريق

فنظر الابن إلي المئذنة الحلزونية التي تعلو الجامع وقال :

– بالطبع أعرف يا أبي ، فهو جامع ابن طولون

فقال الأب وهو يبدو حزينًا :

– للأسف يابني ، لم يعد يتذكر الناس من دولة ابن طولون سوي هذه المئذنة ، بالرغم من أن هذه المنطقة التي نجلس فيها كانت مدينة من أروع وأجمل وأفخم العواصم التي شهدتها مصر عبر تاريخها ولكن تم حرقها بالكامل عدا هذا الجامع

ثم تذكر الأب بعض الأبيات التي قيلت في رثاء الدولة الطولونية فأنشدها بلا تردد :

قف وقفةً وانظر إلي الميدان والقصر ذي الشرفات والايوان

والجوسق العالي المنيف بناؤه ما باله قفر من السكان

فانظر إلي ما شيدوا من بعدهم هل فيه غير البوم والغربان

أين الألي حفروا العيون بأرضهوتأنقوا فيه وفي البنيان

غرسوا صنوف النخل في ساحاته وغرائب الأعناب والرمان

والزعفران مع البهار بأرضه والورد بين الآس والريحان

كانوا ملوك الأرض في أيامهم كبراء كل مدينة ومكان

فتمزقوا وتفرقوا فهناك هم تحت الثري يبلون في الأكفان

والله وارث كل حي بعدهم وله البقاء وكل شئ فان

ثم سأل الأب ابنه مجموعة من الأسئلة وهو شارد الذهن وكأنه لم يزل متأثرًا بما أنشده من أبيات ، ولم يكن ينتظر الإجابة ، بل يتبع السؤال بسؤال آخر ، وكان ابنه يعرف تلك الحالة من أبيه فتركه يسأل دون أن يقاطعه رغم أنه يعرف بعض الإجابات

قال الأب :

– طولون يا بني ليس مجرد مئذنة حلزونية يتذكرها الناس عندما يستمعون إلي من ينطق كلمة (طولون) فماذا تعرف عن الدولة الطولونية خلاف هذه المئذنة الحلزونية الشهيرة ؟ ، وهل تعرف أن ابن طولون يختلف عن قلاوون[1] أم أحيانًا يختلط عليك الأمر بينهما مثل البعض ؟ ، وهل تعرف شيئًا عن مدينة القطائع عاصمة الطولونيين التي تم حرقها بالكامل عدا المسجد ؟ وما علاقة حرق المدينة بالرؤيا التي رآها ابن طولون بخصوص مدينته ومسجده ؟ وكيف كانت العلاقة بين الدولة الطولونية في مصر بالخلافة العباسية في بغداد ؟ وهل كان ابن طولون حاكم عادل أحبه الشعب المصري ؟ وكيف كانت أحوال مصر في العصر الطولوني الذي استمر حوالي ٣٨ سنة فقط ؟ وما أصل حكاية تناول المريض لدجاجة ورغيف خبز ليثبت تعافيه فيخرج من المستشفي ؟ وماذا تعرف عن صدقات ابن طولون ؟ وماذا تعرف عن الوجه الآخر له وعن بطشه بمعارضيه ؟ وكم منهم مات في سجنه ؟

كان الأب من عشاق قراءة كتب التاريخ المصري ، فكان يحتفظ علي هاتفه المحمول بالعديد من الكتب والروايات التاريخية ، كما كان يقوم بتحميل ما يحتاج إليه من كتب ومعلومات من شبكة الانترنت ومحركات البحث :إذا اقتضت حاجته لذلك ، واقترح علي ابنه أن يكون هذا المكان التاريخي وهذه الجلسة فرصة للحديث عن الدولة الطولونية ، وكان الابن يعرف جيدًا أن والده يحب أن يسرد الأحداث التاريخية فأحب أن يُدخل السرور علي قلبه فوافق بحماس علي الاقتراح

فلما شعر الأب بحماس ابنه وفرحته باقتراحه قال :

– حسنًا إذن ، هيا بنا يا بني نتصفح ما تيسر لنا من كتب عن أحمد بن طولون ودولته لنحاول الاقتراب من حقيقة ما حدث في عصره ، وكي نحاول الإجابة علي ما سبق من أسئلة ، وسنخرج من كل كتاب بمعلومة عن الموضوع ثم نؤكدها أو ننفيها عند الانتقال خلال البحث إلي كتاب آخر ، والعهدة علي الراوي يا بني كما يُقال ، ولنبدأ البحث من كتاب المؤرخ ابن تغري بردي لنعرف ما كتبه ثم ننتقل إلي كتب أخري موجودة علي شبكة الانترنت لنطلع عليها بعد تحميلها إن شاء الله

[1] السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي هو الملك السابع من ملوك دولة المماليك البحرية وقد حكم مصر لمدة ١١ سنة من سنة ١٢٧٩م إلي سنة ١٢٨٩م ، وهو محرر مملكة طرابلس من الصليبيين ، وقد حكم أولاده وأخفاده مصر من بعده وهي الأسرة المشهورة بأسرة قلاوون في العصر المملوكي ، وله ضريح فخم ومجموعة أثرية معروفة باسمه موجودة حتي الآن بشارع المعز لدين الله بالقاهرة ، ومن أبرز الحكام من أسرته الملك الأشرف خليل بن قلاوون الذي طرد آخر جندي صليبي من الشام والملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب المسجد المعروف باسمه في القلعة والمدرسة الرائعة بشارع المعز وكذلك السلطان حسن بن قلاوون صاحب الجامع الضخم المشهور باسمه جامع السلطان حسن بجوار جامع الرفاعي حاليًا

ثم بدأ الأب في البحث علي هاتفه عن الكتاب وأخذ في القراءة ولكنه لم يكن يقرأ كل ما يجده بل يختصره أحيانًا ويختار ويستبدل بعض الكلمات والمصطلحات التي لم تعد مستخدمة حاليًا كي يفهم ابنه ما يقصده الكاتب ، فقال :

الأمير أبو العباس التركي

– كتب المؤرخ ابن تغري بردي عن ولاية أحمد بن طولون علي مصر تحت عنوان : (ذِكر ولاية أحمد بن طولون علي مصر : – هو أحمد بن طولون ، الأمير أبو العباس التركي أمير مصر ، ولي مصر بعد عزل واليها في شهر رمضان سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م ، وقد مضي من عمره أربع وثلاثون سنة ويوم واحد

وكان أبوه طولون مملوك لدي حاكم "بخاري وخراسان" ، وأهداه ضمن مجموعة من المماليك إلي الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ، فرقّاه المأمون حتي صار من جملة الأمراء ، ووُلِد له ابنه "أحمد" هذا سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م ، بمدينة "سُر من رأي" –المعروفة حاليًا بمدينة "سامراء" بالعراق– ونشأ أحمد بن طولون وتربي تربية حسنة جميلة ، وحفظ القرآن وأتقنه ، وكان من أطيب الناس صوتًا به ، مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وتفقّه علي مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة ، ولما ترعرع أحمد تزوج بابنة عمه "خاتون" فولدت له ابنه العباس سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م ، ولما مات أبوه طولون فوّض إليه الخليفة العباسي "المتوكل" ما كان لأبيه من مكان ومكانة

ثم تنقلت به الأحوال إلي أن ولي إمرة الثغور وإمرة دمشق ثم ديار مصر ، وكان يقول : "

– ينبغي للرئيس أن يجعل اقتصاده علي نفسه ، وسماحته علي من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكًا لا يزول عن قلوبهم "

ونشأ أحمد بن طولون في الفقه والصلاح والدين والجود حتي صار له في الدنيا الذكر الجميل)[٢]

وكان أحمد بن طولون غير راضي عن سلوك الأتراك مع الخلفاء ، فقد وصل إلي الخلافة في ذلك الوقت خلفاء عباسيون ضعفاء ليسوا علي مستوي الخلفاء العباسيين الأقوياء الأوائل أمثال المنصور والمأمون والرشيد ، فتحكم فيهم الوزراء والقادة والأمراء وكان هؤلاء من المماليك والموالي الأتراك ، ورغم أن ابن طولون من الأتراك إلا أنه لم يكن مثلهم بشأن التعامل مع الخلفاء

[٢] نقلًا عن كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي – (٨١٣-٨٧٤) –قدم له وعلق عليه –محمد حسين شمس الدين-الجزء الثالث-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-الطبعة الأولي-١٤١٣هـ/١٩٩٢م –مقتطفات مختصرة بتصرف- من صفحة٣ وما بعدها

فكان للخلفاء عنده وعند بعض أقرانه مكانة كبيرة مهما كان مستوي ضعفهم ، وكان شديد السخط علي من يتعامل بشكل سئ مع الخلفاء ويقول عنهم :

– حرمة الدين عندهم مهتوكة"[٣]"

ضعف العباسيين

واعلم يا بني كما ذكرت لك من قبل ، أنه قد بدأ ضعف العباسيين تدريجياً بعد خروج العرب من الجيش وظلت مصر تابعة للخلافة العباسية في بغداد حيث كان الخليفة العباسي رمز للأمة الإسلامية أكثر منه حاكماً لها

ولعل إخلاء الجيش من العرب كان من أخطر الأحداث تأثيراً علي ضعف الخلافة العباسية ، أي استبدال الجنود العرب بجنود أتراك ، لأن غالبًا أي دولة تعتمد في حروبها علي عناصر أجنبية قد يصل بها الحال إلي سيطرة هذه العناصر عليها مع مرور الوقت وازدياد قوتهم ، والأمثلة علي ذلك موجودة في التاريخ

فكان من الأفضل في تقديري الاحتفاظ بالجنود العرب كعنصر رئيس في الجيش الإسلامي طالما أن الدولة عربية في الأساس ، وقد اصطفي المولي عز وجل العرب من دون الناس ليبعث منهم نبيه صلي الله عليه وسلم ، وكذلك نزل القرآن الكريم بلغتهم وبالتالي أصبح العرب مسئولين عن الدعوة لهذا الدين والذود عنه ويساعدهم في ذلك من أسلم من الجنسيات الأخرى بالطبع

ولكن مع الأسف قد اقتضت الصراعات السياسية في ذلك الوقت الاستعانة بجنود غير عرب وخاصة ما حدث في عهد الخليفة المعتصم الذي استكثر من الجند الأتراك في عاصمة الدولة كما ذكر بعض المؤرخين : (–– ثم لم يلبث أن أرسل إلي كيدر نصر بن عبد الله واليه علي مصر"٢١٧هـ–٢١٩هـ " " وأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم ففعل ذلك " ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي)

الأتراك هم أصحاب القوة والنفوذ

وفي حالتنا هذه كان الأتراك هم أصحاب القوة والنفوذ وعاشوا في جو من المؤامرات

وأراد أحمد بن طولون أن يبتعد عن جو المؤامرات والدسائس هذا ، وأن يطلب من وزير الخليفة "المتوكل علي الله" أن يأمر بنقله إلي مواقع القتال والجهاد علي الحدود والثغور ، فقال ابن طولون يومًا لصهره وصديقه أحمد بن خاقان : "

[٣] النجوم الزاهرة-ابن تغري بردي-ج٣-صفحة ٦

– يا أخي كم نقيم علي هذا الإثم مع هؤلاء الموالي–يعني الأتراك–لا نطأ موطئًا إلا كُتِب علينا الخطأ والإثم ، والصواب أن نسأل الوزير أن يكتب أرزاقنا إلي الثغر"[٤]

وبالفعل تم له ما أراد وانتقل مع صهره وصديقه إلي مدينة "طرسوس" ، وهناك رأي ما الناس عليه من الأمر بالمعروف ومجانبة المنكر فطابت نفسه بذلك هو وصاحبه فأقاما يسمعان ويتعلمان الحديث مدة حتي أقنعه صديقه بضرورة توجهه إلي مدينة "سر من رأي" ليطمئن علي أمه ويُطمئنها أيضًا علي نفسه برًا بها ، فوعد صديقه بمغادرة طرسوس وتنفيذ نصيحته

ثم خرجوا من طرسوس في قافلة ، مع مجموعة من الرجال وكانوا حوالي خمسمائة رجل –والخليفة يومئذ المستعين بالله– وكان بصحبة هذه القافلة خادم للخليفة كان عائدًا بأشياء ثمينة تخص الخليفة ، وسارت القافلة في اتجاه مدينة "الرها" وكان بها حصن منيع ، ونصحهم الناس أن يدخلوا بالقافلة إلي الحصن لحين تفرق قطاع الطرق الذين تواجدوا بكثرة لاستهداف القافلة وما تحمله من أشياء ثمينة

فرفض أحمد بن طولون الفرار من قطاع الطرق وقال : "

– لا يراني الله فارًّا ، وقد خرجت علي نية الجهاد"

ثم واجه قطاع الطرق وقاتلهم بتفسه بشجاعة فائقة ، فقتل منهم جماعة وهرب الباقون

فزاد ابن طولون في أعين الناس مهابة وجلالة ، ووصل الخادم إلي الخليفة المستعين وأخبره بما حدث من ابن طولون وأنه كان السبب في سلامة القافلة وما تحمله ، فبعث المستعين إلي ابن طولون سرًا مع خادمه بمكافأة عبارة عن مبلغ من المال (ألف دينار) لشجاعته ، وقال لخادمه :

ولولا خوفي عليه قرّبته"

– " عرّفه أنني أحبه ، ولولا خوفي عليه قرّبته"

فقد خاف الخليفة علي حياة ابن طولون من الدسائس والمؤامرات في حالة قربه منه

ويقول المؤرخ ابن تغري بردي عن مؤامرة اغتيال الخليفة المستعين التي نفذها الأتراك والتي رفض ابن طولون الاشتراك معهم فيها ، وعن علاقته بالخليفة ما يلي :

(وكان ابن طولون إذا أُدخل علي المستعين مع الأتراك في الخدمة أومأ إليه الخليفة بالسلام سرًا ، واستدام الإحسان إليه ووهب له جارية اسمها "مياس" فولدت له ابنه "خمارويه" في المحرم من سنة خمسين ومائتين

[٤] النجوم الزاهرة-ابن تغري بردي-ج٣-صفحة ٧

ولما تنكر الأتراك للمستعين وخلعوه وأحذروه إلي "واسط" قالوا له : "

– من تختار أن يكون في صحبتك ؟"

فقال :

– أحمد بن طولون

فبعثوه معه فأحسن صحبته ، ثم كتب الأتراك إلي أحمد

– أُقتل المستعين ونوليك واسطًا

فكتب إليهم : "

– لا رآني الله قتلت خليفة بايعت له أبدًا")[٥]

فبعثوا شخص آخر ليقتله فقتله ، ثم قام ابن طولون بدفن الخليفة وعاد إلي سامراء ، وتولي "المعتمد علي الله" الخلافة

ثم قام الأتراك بتولية أحمد بن طولون علي مصر ، ولكن جعلوا علي خراجها شخص آخر

وعندما استقر ابن طولون في مصر أرسل له الخليفة "المعتمد علي الله" يستحثه في جمع الأموال ، فكتب إليه ابن طولون : "

– لست أُطيق ذلك والخراج في يد غيري"

فأرسل إليه الخليفة من يكلفه بجمع الخراج وبولايته الثغور الشامية أيضًا

ويُحكي أن ابن طولون وهو في مصر عثر علي كنز ثمين قدره (ألف ألف دينار)[٦] ، فأنفقها في أبواب البر والصدقات ، وكان يتصدق في كل يوم بمائة دينار غير ما كان عليه من الرواتب

ومما سبق من كلام ابن تغري بردي يتبين لنا يا بني ، أننا نتكلم عن حاكم قوي وشجاع ومتدين وكريم ، ساقه القدر لحكم مصر فأصبح حاكم عادل ورفق بشعبها فأحبه ، كما كان شديد الولاء للخلفاء العباسيين في بغداد

ولنطّلع علي كتب أخري لنبحث في هذا الموضوع أكثر متخذين من كلام المؤرخ (ابن تغري بردي) نقطة انطلاق في البحث وقد نعود إليه مرة أخري إن شاء الله أثناء الحديث

---

[٥] النجوم الزاهرة-ابن تغري بردي-جد٣-صفحة ٨

[٦] النجوم الزاهرة-ابن تغري بردي-ج٣-صفحة ١١

فهناك رأي آخر في ابن طولون ورد في كتاب اسمه سيرة أحمد بن طولون[٧] ، كتبه المؤرخ "عبد الله البلوي" ، وهذا الرأي لم يذكره المؤرخ نفسه بل ذكره محقق الكتاب الأستاذ "محمد كرد علي ، حيث أشار إلي بطش ابن طولون بمعارضيه وإكرامه لمؤيديه وانفراده بالسلطة

فبعد أن ذكر المحقق ترجمة "البلوي" ووصف أسلوبه في الكتابة ، وكيف أنه نقل المعلومات عن المؤرخ أحمد بن يوسف المعروف بـ "ابن الداية"[٨] ، كتب تحت عنوان "أحمد بن طولون بتصوير البلوي" ما يلي: (صوّر البلوي أحمد بن طولون صورة جميلة ، وخلع عليه من الثناء ثوبًا فضفاضًا ، صوّر ذكاءُه وقوة ملاحظته ، ورسم فراسته وسياسته ، وعدله ورحمته ، وصدقاته ومكارمه ، معجبًا بكل ما أتاه عاذرًا له علي ما قدمت يداه ، لم ينقده في شئ مما قص من أخباره ، ونسب كل ما وقع له من موت عدو ، وتبديل في مجري أحوال الدولة ، أو غير ذلك من المصادفات ، إلي الإقبال الذي عُرِف به طالعه ، والحظ الذي "حسَّن قبيحه وأصلح رديئه" ، والبلوي يعتقد بالإقبال كثيرًا ، يقيم للطالع والنجوم والمنامات والكرامات وزنًا علي ما كان أهل عصره

والمعقول أن ليس هناك إقبال ولا بخت ، والعامل في توفيق بن طولون تربية صالحة ، كانت من أرقي ما عُرِف في دهره ، وذكاء نادر تفرد به)[٩]

ابن طولون رجل دولة

وعلي أي حال نفهم مما سبق أن ابن طولون لم يكن حاكم كأي حاكم عادي ، ولم تكن دولته أيضًا كأي دولة عادية ، بل كان ابن طولون رجل دولة من الطراز الأول ، وتميزت دولته بالعدل والرحمة وكان عصره من أكثر العصور التي تمتع فيها الشعب المصري بالرفاهية والرخاء ، بالرغم من قسوته وإطاحته بمعارضيه

---

[٧] كتاب سيرة أحمد بن طولون –تأليف أبي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي – حققها وعلق عليها محمد كرد علي – الناشر مكتبة الثقافة الدينية – ١٤ ميدان العتبة –ت ٩٢٢٦٢٠- لصاحبها أحمد أنسي عبد المجيد -

[٨] هو أحمد بن يوسف بن ابراهيم الكاتب المعروف باسم ابن الداية، وهو من أصل عراقى، وُلد أبوه يوسف ابراهيم فى بغداد ويبدو أنه كان منوطاً بالإشراف على ضياع الأمير العباسى إبراهيم بن المهدى ثم اتخذ طريقه الى مصر بعد وفاة الأمير، ولكن اتصاله القديم بالبيت العباسى جعل بن طولون لا يركن اليه ولا يأمن شره ولذلك حبسه وكاد يقتله لولا شفاعة أتباعه. أما إبنه أحمد فقد وُلد فى مصر فى منتصف القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى، ونشأ على نمط أبيه، فهو مثقف ثقافة واسعة، كتب فى التاريخ والطب والأخلاق والمنطق والفلك وأخذ بحظ من الفلسفة كما يظهر ذلك فى ثنايا كتبه. وللأسف ضاعت مؤلفاته و لم يبق منها إلا كتابين يستفيد منها الباحث فى تاريخ الدولة الطولونية: الأول: كتاب سيرة أحمد بن طولون الذى نقله لنا ابن سعيد الأندلسى فى كتاب" المُغرب فى حلى المَغرب "والذى كان قوام الكتاب عقده ابن سعيد للكلام على الدولة الطولونية واسماه كتاب الدرر المكنون فى حلى دولة بنى طولون. والكتاب الثانى: كتاب المكافأة الذى شمل إحدى وسبعين قصة موزعة على ثلاثة أقسام كلها تدعو الى الخير وتنفر من الشر. وتأتى أهمية ما كتبه ابن الداية من أنه روى عن عدد كبير من قواد ابن طولون ورجاله، بل إنه كتب لآل طولون وعُد من غلمانهم، لذلك فإنه كتب عن عيان ومشاهدة ونقل عن ثقات عارفين

[٩] نقلًا عن كتاب سيرة أحمد بن طولون –تأليف أبي محمد عبد الله بن محمد المديني البَلَوي –حققها وعلق عليها -محمد كرد علي – الناشر مكتبة الثقافة الدينية–مقتطفات مختصرة بتصرف- من صفحة ١٨ وما بعدها

وكان قد حضر ابن طولون إلي مصر مع مجموعة من المقربين منه ، من بينهم ابنه العباس وأخيه موسي بن طولون ولؤلؤ الخادم بالإضافة إلي كاتبه ومحل ثقته أحمد الواسطي وآخرين ، كما أحضر معه بالطبع أسرته وعبيده وجواريه ، وكان ابن طولون وهو أمير مصر ذا عقل جبار ، ورأي مسدد فوضع لمصر نُظُمهَا المالية والسياسية علي أساس متين ، ورتّب خراجها ، ونظّم ريّها ، وأصلح الطرق والترع والصرف والجسور ، وحدد ضرائبها ، ولم تخف عليه محاولة العباسيين استرجاعها ، ودس الدسائس في إثارة أهلها ، فكان يأخذ بالظنّة ، ويعاقب بالريبة ، ويخشي من لهم اتصال برجال الدولة العباسية ، ويعمل علي الفتك بهم ومصادرة أموالهم

ولكنه رفق بشعب مصر ، لأنه أفلح في ولايته مصر ، فارتاحت رعيته

وكان ابن طولون يحافظ علي عاداته الموروثة وروتينه اليومي ، يحافظ علي صلواته ، ولا يخلو يومًا من التوسل والتضرع والسجود ، وهمه أبدًا حفظ نعمته وصيانة دولته

يُؤثِر الوقار

كما كان يُحِب مجالس المنادمة والطرب ، ويعقد مجالس الأُنس أحيانًا ، ولا يتناول إلا ما استحل تناوله من الشراب ، وكان حتي في مجالسه الخاصة يُؤثِر الوقار ويصطنع التقوي ، وهو يُحسن الجمع بين اللذات المحلله ، ويمتنع علي ما يظهر عن المحرمات ، فهو ذو شخصية خاضت كل عُباب ، وطرقت كل باب

وقد أحسن ابن طولون الاضطلاع بأعباء الحكم وتمرّس بالسياسة ، وقدّر التبعات التي أُلقيت علي عاتقه ، فكان يهون عليه إتعاب نفسه لتستريح رعيته ، ويسهر عليهم لينامو مطمئنين ، وبفضل يقظته ما نجم ناجم يجاذبه حبل السلطة إلا قضي عليه

ولا قاومه عامل أراد خدمة بغداد علي حسابه إلا قهره ، وكان لا يقبل المعارضة لرأيه أو التآمر علي حكمه ، فسجن الكثيرين وماتوا في سجنه ، فكان يحب الانفراد بالسلطة ، كان ديكتاتور ولكنه كان عادلًا ، وهي معادلة غاية في الصعوبة أن تكون حاكمًا تبطش بمعارضيك وفي نفس الوقت ترحم وترعي رعيتك ، فيا لها من شخصية محيرة وعجيبة وفريدة من نوعها ، فلا تدري أتضعه في صف الظالمين أم في صف المحسنين فقد يراه شخص ما في حال فيقول لم أر أعدل منه ، ويراه شخص آخر في حال آخر فيقول لم أر أشد منه قسوة ، هذا هو بطل قصتنا يا بني

وسلِ الرحمن منه العافية

وقد ينطبق عليه قول الشاعر دعبل الخزاعي حين قال

وإذا لاينته صادفته – سَلِس الخُلقِ سليم الناحية

وإذا خاشنته ألفْيَتْهُ – شَرِسَ الرأي أبيًا داهية

فاحمد الله علي صُحْبَتِه – وسلِ الرحمن منه العافية

فكان في الظاهر ليّن الملمس لمن في بغداد ، وهو في باطنه شديد الوطأة عليهم ، لا ينزل لهم عن أقل حق من حقوقه ، وكان علي علم بكل ما يدور من دسائس ومؤامرات يقوم بها الأتراك حول عرش الخلافة ، فهو يتقيهم لإيقانه أنهم لا يرضيهم سيره بحال ، وكيف يرضون عنه وهم يتوجسون خيفة من انبساط ظل حكمه ، ولا يفتأون يذكرون ويُذّكّرهم الذاكرون أنهم دونه علمًا وعقلًا وعدلًا

وعندما حضر ابن طولون إلي مصر كان الخليفة العباسي آنذاك هو (المعتمد علي الله) أما أخيه وولي عهده فكان (الموفق) ولم تكن العلاقة علي ما يرام بين ابن طولون و(الموفق) وكانت الخلافة العباسية مشغولة بمكافحة ثورة تُسمي ثورة (الزنج) وبالتالي كانت الفرصة مهيأة لابن طولون كي يفعل ما يشاء في مصر بعد أن صار أميرها

وحين دخل ابن طولون مصر أهدي إليه "أحمد بن مدبّر" (عامل الخراج) هدايا حسنة ، قيمتها عشرة آلاف دينار ، وكان ابن مدبّر قد خرج لتلقيه عند دخوله ، ومعه (شقير) الخادم ، الذي كان مسئول عن البريد يومئذ في مصر ، فلما تلقياه وسلما عليه بشَّ لهما وأحسن مخاطبتهما

وكان يتقدم أحمد بن مدبر ويحيط به مئة (١٠٠)غلام أشداء مسلحين ، من الحرس الخاص به ، يرتدون زيّا جميلًا موحدًا ويضفون علي موكبه العظمة والمهابة ، وكانوا يقفون في حافتي مجلس (ابن مدبر) إذا جلس ، وإذا ركب كانوا بين يديه ، فكانت له بهم هيبة عظيمة ، وقد لفت ذلك بالطبع نظر ابن طولون

فلما رأي ابن طولون حرس ابن المدبر لم يقبل هديته ، وردَّها إليه وطلب استبدالها بالحرس رغم قيمتها الكبيرة

استبدل المال بالرجال

وكتب إليه يقول :

– قد كنت أعزّك الله ، أهديت لنا هدية وقع الاستغناء عنها ، فلم نُجِز تغنُّم مالك ، كثَّره الله

أي أنه استبدل المال بالرجال ، وهو الأمر الذي جعل (ابن المدبر) يقلق ويعيد حساباته بشأن تقييم شخصية ابن طولون ، ولم يستطع بالطبع أن يرفض طلب ابن طولون ، ولكنه أرسل رسالة إلي بغداد يوضح فيها أن

– هذا الوالي غير مأمون علي الدولة ولابد من استبداله

وعلم ابن طولون من مصادره الخاصة بأمر تلك الرسالة وما تحتويه فأسرها في نفسه وأخذ الحيطة من ابن المدبر

ثم حدث أن تولي الخلافة المهتدي بالله وكان ناقمًا علي "باكباك" وهو الشخص الذي أرسل ابن طولون ليحكم مصر نيابة عنه حيث كانت مصر إقطاع من ممتلكاته فلما نقم عليه الخليفة تخلص منه ونقل كل أملاكه بما فيها مصر ، ومنحها لشخص تركي آخر اسمه (يارجوخ)

وربما اعتقد البعض أن يارجوخ هذا سيرسل شخض آخر ليحكم مصر وينزعها من أحمد بن طولون ولكن كانت علاقة ابن طولون بيارجوخ أفضل من علاقته بباكباك حيث أرسل إليه يارجوخ قائلًا :

– تسلم من نفسك لنفسك

بل وضم تحت سيطرته ما كان خارج عن مصر ، وقد كانت مدينة الإسكندرية ولاية قائمة بذاتها ولها حاكم خاص بها ولا تخضع لحاكم مصر ، وأصبحت من جملة ما امتلكه يارجوخ ، فضمها لابن طولون

وكتب يارجوخ إلي (اسحاق بن دينار) متقلد الإسكندرية وأمره بتسليمها إلي ابن طولون ، فعظمت منزلة ابن طولون

ولما عرف ابن مدبر هذه التطورات ازداد قلقه وغمه ، ودعته الضرورة والخوف من ابن طولون إلي ملاطفته والتقرب من قلبه

حييًا رقيق الوجه

ولما صارت الإسكندرية من ضمن أعمال ابن طولون ، طابت لأخيه (موسي بن طولون) الإقامة فيها فطلب من أخبه أحمد بن طولون أن يمنحه حكمها ولكنه رفض وأقر عليها حاكمها السابق لِما رأي منه من حُسن الاستقبال والطاعة ، حيث خرج ابن دينار لاستقباله من أبعد مكان وترجَّل له وأعطاه بحق الرياسة عليه فشعر بالخجل منه ، فقد كان ابن طولون حييًا رقيق الوجه ، فاستحيا منه أن يصرفه عن البلد فأقره عليه

وقد حاول موسي أن يتوسط لدي أخيه لقبول منحه الإسكندرية ولكن فشلت جميع المحاولات ، وظل حاكمها ومتقلدها اسحق بن دينار في مكانه كما هو

وكان ابن طولون يريد أن يمنح أخيه حكم "طرسوس" إذا امتلكها وكان يعتقد أنها أفضل لأخيه من الإسكندرية وقد كان يتوقع ويتمني أن يمتلكها يومًا فهو يحبها وتربطه بها ذكريات رائعة

وكان ابن طولون مغتبط لأنه تولي حكم مصر وما كان خارج عنها ، وقال لكاتبه وموضع ثقته أحمد الواسطي يومًا

– الحمد لله كثيرًا ، تركنا لله عز وجل شيئًا واحدًا ، عوّضنا عنه أشياء أعظم منه ، وأجود وأحمد عاقبة ، كانت نهاية ما وُعِدنا به علي قتل المستعين بالله تقليد "واسط" ، فخفنا الله عز وجل في قتله فلم نقتله ، فعوضنا جل اسمه مصر وغيرها

فأصبح لديه جيش كبير

ثم حدث أن وقع تمرد في الشام وطلب الخليفة من ابن طولون أن يقوم بحشد جيش كبير لإنهاء ذلك التمرد ، وأمر الخليفة ابن مدبر أن يعين ابن طولون علي ذلك ، فقام ابن طولون بشراء أعداد ضخمة من العبيد لتجنيدهم ، فأصبح لديه جيش كبير ، ثم انتهي التمرد علي يد غيره ممن أرسلهم الخليفة إلي الشام لتنفيذ نفس المهمة ، ولما زادت عساكر ابن طولون فكر في بناء عاصمة جديدة وهي مدينة (القطائع) لتضم جميع قواته

وكان هو وأمراء مصر من قبله يسكنون في دار الإمارة وكانت معروفة ببلد الإمارة وكان لها بابان ، وعندما شرع في بناء المدينة الجديدة ركب إلي سفح الجبل ، واختط فيه قصرًا ، وأمر أصحابه وغلمانه ورجاله أن يختطوا لأنفسهم حوله ، فاختط الجميع وبنوا ، حتي اتصل البناء بعمارة البلد ، أما من الجانب الآخر فقد جاوز المدينة ، ثم قُطِّعت القطائع وسُمِّيت كل قطيعة باسم من يسكنها ، فكانت للنوبيين قطيعة مفردة تُعرف بهم ، وللروم قطيعة أخري ، وللفراشين قطيعة ، ولغيرهم من كل صنف من الغلمان ، وبني القادة مواضع متعددة ، فعُمِّرت عمارة حسنة ، تفرقت فيها السكك والأزقة ، وبُنِيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران ، وسُمِّيت أسواقها ، فأصبحت مدينة كبيرة عامرة تضاهي في حُسنها وروعتها مدن الشام بل أكبر وأحسن

أما قصره فكان به ميدان واسع أصبح علمًا عليه فيقول الناس نحن متوجهون إلي الميدان أو قادمون من الميدان وليس من القصر فقد أصبحت كلمة الميدان تُستخدم أكثر من كلمة القصر

وعمل له أبوابًا ، وسمي كل باب منها باسم ، فمنها باب الميدان ، ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش ، وباب الخاصة الذي لا يدخل منه إلا خاصته ، وباب الجبل الذي يواجه جبل المقطم ، وباب الحرم الذي لا يستخدمه سوي النساء والخدم ، وباب (الدرمون) وهو اسم حاجب أسود ضخم كان يجلس علي هذا الباب فسُمي الباب باسمه وكان مسئول عن الجنود السودان ، وباب آخر سُمّي باسم حاجب كان عليه يُقال له

(دعناج) ، وباب (الساج) واسمه مشتق من نوعه لأنه مصنوع من الساج ، وباب الصلاة وهو في الشارع الأعظم ويؤدي إلي المسجد ، ولما وجد ابن طولون أن مساحة المسجد صغيرة ولم تعد مناسبة قرر بناء جامع ضخم له مئذنة حلزونية تشبه مئذنة جامع سامراء ، واتسعت أحواله بعد بناء الجامع ، وكثرت اصطبلاته لكثرة خيوله ورجاله ، وعظم صوته وأصبحت عاصمته عاصمة تحاكي أفخم المدن والعواصم في العالم ، ويقول الكاتب الكبير محمود السعدني رحمه الله عن مدينة القطائع في كتابه الممتع " مصر من تاني " :

القطائع غاية في الفن الهندسي

(– ولقد كانت عاصمته الجديدة القطائع غاية في الفن الهندسي ، أنفق علي إنشائها كل ما غنمته جيوشه المظفرة في الشرق والغرب وكانت دورها واسعة وحدائقها أوسع واستخدموا في بناء دورها وقصورها حجارة الهرم الأكبر ظناً منهم أن القدماء قد قاموا " بتشوين " هذه الحجارة علي شكل أهرامات تمهيداً لبناء مدينة ، ولما كانت القطائع تقع علي قمة تل يتوسط النيل والصحراء الشرقية فقد أقام لها قناطر شديدة الارتفاع ورفع الماء إليها عن طريق سواقي في المكان المعروف الآن بفم الخليج ولقد عاف الناس شرب الماء أول الأمر وكانوا يعانون كثيرًا في الذهاب إلي النهر لأخذ حاجتهم من المياه ، وأفتي شيخ مشايخ مصر بأن ماء القناطر آسن وشربه حرام واستعماله في الوضوء باطل ، وعندما علم أحمد بن طولون بالأمر أرسل عددًا من رجاله بعد منتصف الليل إلي منزل شيخ المشايخ وصحبوه معهم ، وأدرك الرجل أن في الأمر سرًا ، وأنه هالك لا محالة ، واصطحبوه إلي ساحة واسعة تتفرع فيها القناطر إلي اتجاهات عدة وفوجئ الشيخ الذي كان يزحف نحو السبعين بأحمد بن طولون يقف عند حافة القنطرة ، ووقف الشيخ العجوز يرتعد من شدة الخوف والبرد ، ووقف أحمد بن طولون صامتًا يرنو إلي المياه الباردة المتدفقة من أعلي إلي أسفل منحدرة بشدة نحو بيوت المدينة ثم انحني الحاكم وعب من المياه عب ظمآن طال به العطش والشوق ، ثم دعا شيخ المشايخ إلي الشرب فانحني الرجل وشرب حتي امتلأت بطنه ، ثم تجشأ في سرور ، وهتف في فرح بالغ : ياله من مذاق أطيب من مذاق نهر الجنة)[١٠] وهذه الرواية قد تكون مبالغ فيها

واعلم يا بني (أن أحمد بن طولون كان يهتم بالطب وصحة المواطنين بشكل غير عادي حيث قام ببناء مستشفي كبير مجاني وألحق به صيدلية لصرف الأدوية مجاناً أيضاً دون تمييز بين الطبقات والأديان ،

---

١٠ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٢٤

رغيف ودجاجة

ويظل المريض تحت العلاج حتي يتم شفاءه وكانت دلالة شفاء المريض قدرته علي أكل رغيف ودجاجة وعندئذ يُسمح له بمغادرة المستشفي وكان ابن طولون يتفقد المستشفي ويتابع علاج المرضي وأعمال الأطباء

كما اهتم ابن طولون بالجيش الضخم الذي كان يسيطر عليه سيطرة كاملة وكان لديه أسطول قوي وأنشأ مراكب حربية متقنة الصنع ، كما حدثت طفرة صناعية في مصر في ذلك العصر وخاصة صناعة النسيج والزجاج والورق والأسلحة والصابون والسكر وقام ابن طولون ببناء دار لسك العملة ، حيث سُكَّت الدنانير ذات المستوي الرفيع في النقاء

– فماذا عن التجارة في أيامه يا أبي ؟

– لقد شهدت مصر في عهده يابني نهضة تجارية عظيمة ، فكانت البضائع التي تصل من بلاد الهند والصين تسلك طريق البحر الأحمر إلي مصر ومنها إلي موانى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا

– ومن كان يعيش في مصر في عهده من مشاهير العلماء ؟

– لقد كان يعيش في مصر في ذلك العهد العديد من العلماء والفقهاء والمؤرخين والأدباء والشعراء نبغوا في ظل الدولة الطولونية وغاية القول في هذا الموضوع أن مصر في هذا العهد شهدت فترة ازدهار في جميع المجالات وشاركت في النهضة الحضارية ، التي شهدها العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري

– وهل أحبه الشعب يا أبي ؟

– لقد اكتسب ابن طولون في مصر يا بني حب الجميع علي اختلاف دياناتهم ومذاهبهم المختلفة فقد كان كما يقول عنه ابن الأثير "عاقلاً حازماً ،كثير المعروف والصدقة متديناً يحب العلماء وأهل الدين، وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين "١١ فعندما مرض مرضاً شديداً في آخر أيامه

(– – خرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل والمعلمون بالصبيان إلي الصحراء ودعوا له – –)١٢ ، فعندما تقرأ يا بني ما كتبه المؤرخون عن ابن طولون تجد أنه كان حاكمًا عادلًا بقدر ما يستطيع ولكنه كان منفرد بالسلطة ولا يقبل المعارضة ، وإذا عدنا لما رواه المؤرخ ابن تغري بردي يا بني في كتابه النجوم الزاهرة سنجده يؤكد علي أن جميع خصال ابن طولون كانت محمودة ، إلا أنه كان

---

١١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠٩

١٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠٩ ، ١١٠

حاد الخُلُق والمزاج ، فإنه لما ولي مصر والشام ظلم كثيرًا وعسف ، وسفك كثيرًا من الدماء ، ويقال أنه مات في حبسه ثمانية عشر ألف

يدعوه للحضور إلي بغداد

– وهل ظلت الأمور في عاصمة الدولة مستقرة ، أم أن هناك ما استجد من أحداث أزعجت ابن طولون ؟

– لما عظم أمر أحمد بن طولون واستقرت له الأوضاع خافه (ماجور) وهابه ، قاشتكاه هو وحُسّاده وأعداءه للخليفة وجعلوه يقلق منه ومن تزايد شعبيته ونفوذه ، وكان ممن اشتكاه بالطبع أحمد بن مدبر وشقير الخادم صاحب البريد ، فتأثر الخليفة ومن حوله بتلك الشكاوي ، فأرسل الخليفة إلي ابن طولون يدعوه للحضور إلي بغداد بدعوي انتدابه وتكليفه ببعض المهام ، وكتب في رسالته :

– أما بعد فإنا راينا أن نرد إليك أمر دارنا بالحضرة ، وتدبير مملكتنا ، فإذا قرأت كتابنا هذا فاستخلف علي قصرك من أحببت ، والبلد لك وباسمك ، واشخُص إلينا لما ندبناك إليه ، ورأيناك أهلًا له ، والسلام

فلما قرأ ابن طولون الرسالة فهم بدهائه بالطبع المراد منها وعرف بذكائه من دفع الخليفة لكتابتها فأرسل إلي الوزير والحاشية أموال كثيرة لا حصر لها وهدايا تفوق الوصف حُسنًا ونُدرة ، ولا تُقَدّر بثمن من أروع وأفخم منتجات مصر ، وقد فعلت تلك الأموال فعلها وآتت أُكلها وتغير الموقف تمامًا لصالح ابن طولون وأجمع الكل علي تثبيته في منصبه كحاكم لمصر ووصلته رسالة بذلك وهدايا من الوزير، كما قام الوزير بإرفاق ما وصلته من رسائل الوشاية من ابن مدبر ومن شقير صاحب البريد

فلما قرأ ابن طولون رسالة الوزير تصدق بصدقات جليلة ، وقام بمواجهة شقير برسالته وعاقبه أمام الجميع بجعله يجري ويمشي لمسافة طويلة وعدم الركوب من بيته إلي قصر ابن طولون ، ولم يتحمل شقير قسوة العقاب فمات في آخر النهار ، ولم يقم بقتله بل أشهد الجميع أنه مات من التعب وبدا أمام الناس أن شقير هو الذي أرهق نفسه بالترجل وعدم الركوب إلي ابن طولون

لا فائدة من الوشاية

وهكذا عرف الجميع يا بني أنه لا فائدة من الوشاية بأحمد ابن طولون لأن أي وشاية سيتم اكتشافها من المصدر نفسه ولن تمر دون عقاب

ثم حدث أن تمرد علي ابن طولون بعض الأشخاص وخرجوا عليه وكانت معهم قوة بسبب إعلان انتسابهم إلي العلويين وغيرهم من الصحابة وقويت شوكتهم فأرسل لهم ابن طولون قادة أكفاء يصحبهم جيوش وقوات كثيرة قضوا علي حركات التمرد والخروج

ثم خرجت (برقة) عن السيطرة فأرسل ابن طولون إليها جيشًا كثيفًا بقيادة لؤلؤ الخادم ، وبعد عدة وقائع انتصر جيش ابن طولون وخمدت الفتنة ، وعندما عاد لؤلؤ إلي مصر اصطحب معه الأسري وطاف بهم البلد فزادت رهبة الناس من ابن طولون حتي كان يخيف به الرجال والنساء أطفالهم وصبيانهم فيفزعون من مجرد ذكر اسمه

من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر

وعنما جمع الخليفة المعتمد لابن طولون خراج مصر ومعها الثغور الشامية ، كان رقيب علي نفسه ويشعر أحيانًا بأنه قد تجاوز الحد في عقوبة البعض فكان علي الفور يقوم بزيادة الصدقات وأعمال البر حتي يشعر بأنه قد قام بزيادة حسناته ويتضرع إلي الله سبحانه وتعالي ليغفر له

ولقد كانت صدقاته علي أهل المسكنة والستر وعلي الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة ، وكان راتبه لذلك في كل شهر ألفي دينار ... سوي ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر علي تجديد النعم ، وسوي مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع ، علي كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران علي القدر ، وكانت تعمل في داره وينادي : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر وتفتح الأبواب ويدخل الناس الميدان ، وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكره ينظر إلي المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك فيحمد الله علي نعمته ، ولقد قال له مرة إبراهيم بن قراطغان وكان علي صدقاته :

– أيد الله الأمير ، إنا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقة ، فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم

فقال :

– يا هذا ، كل من مد إليك يده فأعطه ، فهذه هي اللطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالي في كتابه فقال (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ)(٢٧٣–سورة البقرة) ، فاحذر أن ترد يدا امتدت إليك وأعط كل من يطلب منك

كان يزهد في فضول الأموال

ومما يُروي أيضًا عنه يا بني أنه كان يزهد في فضول الأموال ، فعندما ورد عليه كتاب المعتمد بجمع الخراج بمصر كله بيديه وزاده خراج الثغور الشامية ، رغب بنفسه عن أدناس المعاون ومرافقها ، فرفضها وأمر بتركها

وكان قبل إسقاط المرافق بمصر قد شاور عبد الله بن دشومة في ذلك ، فقال له :

– إن أمّنني الأمير تكلمت بما عندي

فقال ابن طولون :

– قد أمنك الله عز وجل فقل

فقال :

– أيها الأمير إن الدنيا والآخرة ضُرّتان ، فالحازم من لم يخلط إحداهما مع الأخري ، والمُفرِّط من خلط بينهما فيتلف أعماله ويبطل سعيه ، وأفعال الأمير –أيده الله –أفعال الخيرة ، وتوكله توكل الزهاد ، وليس مثله رَكِب خُطة لم يُحكمها ، ولو كنا نثق بالنصر دائمًا طول العمر ، لما كان شئ آثر عندنا من التضييق علي أنفسنا في العاجل[١٣] بعمارة الآجل[١٤] ، ولكن الإنسان قصير العمر ، كثير المصائب ، مدفوع إلي الآفات ، فترك الإنسان ما قد أمكنه وحصل في يده (تضييع) ، ولعل الذي حماه نفسه يكون سعادة لمن يأتي بعده[١٥] ، فيفوز ذلك بما قد حُرِمَه هو

ويجتمع للأمير أيده الله مما قد عزم علي إسقاطه من المرافق في السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار ، وإن فسخ ضياع الأمراء والمتقبلين في هذه السنة ، لأنها سنة ظمأ توجب الفسخ ، وألزمت القصبة[١٦] الاثنين زاد مال البلد وتوفر توفرًا عظيمًا ينضاف إلي مال المرافق ، فضبط به الأمير أيده الله أمر دنياه ، وهذه طريقة خدمة الدنيا ، وإحكام أمور الرياسة والسياسة فيها ، وكل ما عدل إليه الأمير أيده الله من غير هذا فهو مفسد لدنياه ، وهذا رأيي والأمير أيده الله أعلي عينًا وما عساه يراه

فقال ابن طولون :

– ننظر في هذا إن شاء الله

---

[١٣] الحياة الدنيا
[١٤] الحياة الآخرة
[١٥] ورثته
[١٦] قصبة المملكة : حاضرتها الكبري

وشغل هذا الكلام بالطبع قلب ابن طولون وبات في تلك الليلة بعد أن مضي أكثر الليل يفكر في كلام ابن دشومة ، وظل في حالة أرق لفترة من كثرة التفكير

فلما غلبه النوم رأي في منامه رجلًا صالحًا يعرفه ، كان من إخوانه الزهاد بطرسوس ، فرآه يقول له :

– ليس ما أشار به عليك من استشرته في أمر الارتفاق والفسخ برأي تُحمد عاقبته فلا تقبله ، ومن ترك شيئًا لله عز وجل عوضه الله عنه ، فأمض ما كنت عزمت عليه

فلما أصبح أسرع بإمضاء ما عزم عليه وأرسل الرسائل إلي جميع عماله تتضمن أوامره بذلك ، وطلب حضور ابن دشومة وحكي له ما حدث وما رآه في منامه فقال ابن دشومة :

– قد أشار عليك رجلان أحدهما في اليقظة ، والآخر ميت في النوم ، وأنت للحي (أوجد) ، وبضمانه أوثق

فقال ابن طولون :

– دعك من هذا فلست أقبل منك

يعثر علي مبلغ ضخم من المال (كنز)

ثم ركب ابن طولون في غد ذلك اليوم إلي الصيد

فلما أمعن في الصحراء ساخت في الرمال يد فرس أحد غلمانه فتعثر وسقط لنزول أحد قوائم الفرس بالكامل في الرمل ، فتعجب ابن طولون وأسرع إليه وأخرج يد الفرس من الرمال فإذا به يعثر علي مبلغ ضخم من المال (كنز) ، فلما فحصوه وحصروه وجدوه مليون دينار ذهبي ، وشاع خبر العثور علي الكنز بين الناس وأرسل ابن طولون رسالة إلي بغداد عاصمة الدولة ليخبرهم بموضوع الكنز وليضعه حيث يريد الخليفة كما استأذنه في إنفاقه في أوجه البر والصدقات ، فأذن له

فقرر أن يبني المستشفي التي تحدثنا عنها والمخصصة للعلاج المجاني للجميع ، وهو ما يُعرف حاليًا يا بني بالتأمين الصحي المجاني ، فقد كان يهتم بالطب وصحة المواطنين بشكل غير عادي ، كما ألحق بالمستشفي صيدلية لصرف الأدوية مجاناً أيضاً دون تمييز بين الطبقات والأديان كما قلنا

ولم يمض وقت طويل منذ أن عثر علي الكنز حتي عثر علي مبلغ آخر عظيم من المال في الجبل فاستخدمه في بناء هذا الجامع الشهير الذي تراه ، ثم أوقف جميع ما تبقي من الأموال علي الصدقات ، فكانت صدقاته لا تُحصي كثرة

هذا أول بركة مشورة الميت في النوم

وشعر ابن طولون أن كل هذه الأموال التي عثر عليها إنما هي عوض من الله عز وجل ، بسبب اتباعه ما رآه في المنام ، وعدم أخذه برأي ابن دشومة ، فأحضره وقال له :

– بئس الصاحب والمستشار أنت

ثم أشار إلي المال وقال :

– هذا أول بركة مشورة الميت في النوم ، ولولا أني أمَّنتك لضربت عنقك

وتغير خاطر ابن طولون علي ابن دشومة وسقطت مكانته عنده ، وبمرور الوقت بلغه أن ابن دشومة يظلم الناس ويعاملهم معاملة سيئة فقبض عليه وسجنه ، ومكث في السجن فترة طويلة حتي مات

وجدير بالذكر أنه قد تطورت الأمور في الدولة العباسية مما كان له تأثير بالغ في مسار الأحداث وأدي إلي تفاعل ابن طولون معها ، حيث خرج والي البصرة وتمرد علي الدولة واستفحل أمره

– وما هي تفاصيل تلك الأحداث وكيف تفاعل معها ابن طولون يا أبي ؟

واستعد الأب لسرد الأحداث واختار أن يتلوها علي ابنه من كتاب واحد حتي لايستغرق وقت طويل في الانتقال من كتاب لآخر علي هاتفه ، وكي لا يتشتت تفكيره وتركيزه ين عدة أساليب للمؤرخين فيذكر أحدهم نقطة ويغفل عن أخري ، وقرر أن يكون كتاب سيرة أحمد بن طولون للبلوي المديني هو الكتاب المحدد للسرد مع تعديل بعض الكلمات والعبارات والمصطلحات طبقًا للعصر الحالي كي تتناسب مع تلقي ابنه للكلام ، ثم بدأ الحديث بقوله :

– كانت يا بني بداية أحداث هذه القصة طبقًا لما ذكره (البلوي) في سنة ٢٥٤ هجريًا ، عندما أرسل (المعتمد) رسولًا إلي مكة لإحضار أخيه المسمي (بالموفق) وكان الخليفة (المهتدي) من قبل قد نفاه إليها ، فلما وصل إليه الرسول عقد العهد بعده لابنه (المفوَّض) وله من بعده ، ولقَّبه (بالموفَّق) ، وقسَّم المملكة بينه وبين ابنه (المفوَّض) ، فجعل غرب المملكة لابنه (المفوَّض) ، وشرقها لأخيه (الموفَّق) ، وكتب بينهما بذلك كتابًا ارتهن فيه أَيمانهما بالوفاء ، بما وقعت عليه الشروط علي كل واحد منهما وله ، وضمن ذلك العهد الثابت في الشرط كل ما يخاف من مثله في العاقبة

كان (المعتمد) لا يعلم ما في طوية (الموفق)

وكان (المعتمد) لا يعلم ما في طوية (الموفق) وما في دخيلة نفسه ، وكان يحسد أخاه علي الخلافة فلا يراه أهلًا لها ، ويطعن عليه ، ويُنقص من أمره جدًا

ولما جعل العهد لابنه ، ولقبه (المفوض) ، وجعله هو بعده ، اشتد ذلك علي (الموفق) ، وقوي بغضه لابنه ، وزاد حقده علي أخيه (المعتمد) ، وقرر أن يتشفي منه إذا ظفر بالأمر ، وبلوغ كل مكروه به

وكان (المعتمد بالله) في ذلك الوقت رجلًا متشاغلًا عن كل هذا بالملذات ، وبالصيد واللعب ، وطيب العيش والتفرد مع الجواري ، فكانت الأمور ضائعة ، والتدبير فاسد ، وكل متقلد لعمل قد فاز بما يتقلده

وكان في الشرط الذي كتبه (المعتمد) بين (الموفق) وابنه أنه ما حدث في عمل كل واحد منهما من حدث ، كانت النفقة عليه من مال خراج قسمه ، واستخلف (المفوض) علي قسمه (موسي بن بغا) ، الذي قام بتعيين كاتب له اسمه (عبيد الله بن سليمان بن وهب) ، بينما انفرد الموفق بقسمه ولم يستخلف عليه أحد ، وتقدم إلي كل واحد منهما ألا ينظر في عمل صاحبه ، وتم إرسال الكتاب وبه الشرط للكعبة ليزداد قيمة

وكان هناك رجل علوي في البصرة قد جمع جيش كبير وتمرد علي الدولة العباسية ، وكان الموفق يحاربه ويتفرغ لقتاله ، وكلفه ذلك الكثير من الأموال

استفحل أمر العلوي البصري وطالت محاربته

فلما استفحل أمر العلوي البصري وطالت محاربته ، انقطعت مواد خراج الشرق عن أبي احمد الموفق ، وتقاعد الناس عن حمل المال الذي كان يُحمل إليه ، واحتجوا في ذلك بعدة أسباب منها خروج العلوي وما لحقهم منه ، وأخذه من أموالهم ، وكذلك خوفهم من أن يؤخذ ما يحملونه في الطريق ، لكثرة أصحاب العلوي وانتشارهم في الطرق

وهناك من يتربص وينتظر ليري لمن ستستقر الأمور ليرسل له الأموال

وهنا دعت الضرورة أن يرسل (الموفق) إلي أحمد بن طولون يطلب منه المال ليستعين به علي ما هو فيه ، ووضح له شدة حاجته إلي المال ، وكانت الرسالة مع شخص معروف اسمه (نحرير)[١٧]

ثم استقبل ابن طولون رسولًا آخر من (المعتمد) يطلب منه المال أيضًا ويقصد المال الرسمي (الخراج) الذي يتم إرساله في العادة كل سنة ومعه الطراز والرقيق والخيل وغير ذلك

(نحرير) الخادم عينًا عليك

وكتب إليه (المعتمد) سرًا يحذره من (نحرير) ويقول له

– (الموفق) إنما أنفذ (نحرير) الخادم إليك عينًا عليك ، ومستقصيًا علي أخيارك ، وأراه قد كاتب بعض أصحابك فاحترس منه ، واحمل المال إلينا معه ، لئلا تقوي يد (الموفق) به ، وعجل إنفاذه

---

[١٧] خادم المتوكل

فلما حضر (نحرير) أنزله أحمد بن طولون في دار معه في الميدان تحت عينه ، ومنعه من الركوب إلي موضع من المواضع ، ولم يمكنه الخروج من الدار التي أنزله فيها ، إلي أن أخرجه من البلد ، وتلطف في الكتب التي كانت معه فأخذها ، وحمل معه ألف ألف ومائتي ألف دينار

وتجدر الإشارة هنا يابني إلي ما ورد عن بعض صفات ابن طولون –المتعلقة بحصر الأموال– في كتاب العقد الفريد لابن طلحة الوزير حيث كتب ما يلي :

(وكان ابن طولون من محبته للعدل وإقامته ، وتأييده الحق وسلوك طريقته ، يميل إلي كل من كان ذلك من صفته ، ويقرب إليه من علم التحقيق من خليقته [١٨])

وسلم المال إليه

ثم أن ابن طولون يابني حمل كل ما جري الرسم بحمله ، وخرج بنفسه ، وأخرج معه الشهود العدول ، حتي شيعه إلي العريش ، ووجه إلي صاحب (ماجور)[١٩] بالعريش فأحضره وسلم المال إليه وأشهد عليه بذلك الشهود

وعاد إلي مصر ينظر في رسائل[٢٠] (الموفق) التي حصل عليها ، فإذا هي كانت مرسلة إلي جماعة من قواده ، يحرّضهم عليه ويستميل قلوبهم ، لما كان في نفسه علي ابن طولون بسبب قوة موالاته (للمعتمد) وصحة طاعته له

إن الحساب يوجب أضعافه

ولما وصل المال أرسل (الموفق) إلي ابن طولون رسالة يستصغر فيها المال ويقول :

– إن الحساب يوجب أضعافه

وأخذ يبحث عن بديل ليتقلد عمل ابن طولون ليتم عزله وإبعاده عن مصر

وأغضب ذلك ابن طولون بالطبع عند معرفته ، فبعد أن قرأ ابن طولون كتاب (الموفق) قال :

– وأي حساب بيني وبينه ؟ ، أو حال توجب مكاتبتي بمثل هذا وغيره ؟

---

[١٨] ويضيف ابن طلحة فيقول (حتي أنه -أي ابن طولون- في بعض الأيام أراد أن يحمل ما اجتمع من المال إلي حضرة الخليفة ، فأحضر القاضي ومعه العدول بحيث يشهدون علي القاضي ، فكتب الشهود خطوطهم ، وقد عاينوا المال ، وكان مبلغه ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ، فلما بلغ الكتاب إلي "سليم" وهو بعض الشهود ألقاه إلي الخادم من يده وقال : أيها الأمير لست أشهد حتي يوزن المال بحضرتي ، فغاظه ذلك منه ، لتأخر الإنفاذ ، ثم قال للوزّانين : زنوه ، فلما فرغوا من وزنه قالوا : اشهد قال : بقي لي النقد ، فدعا بالنَقَّاد فنقده ، و"سليم" جالس معهم حتي فرغ وخُتِمت الأكياس ، وتسلّمها حاملها ، فكتب شهادته وانصرف ، فقال ابن طولون : مثل هذا ينبغي أن يُعتمد عليه ويُمال إليه فإن من لا دين له لا أمانة له ، ومن لا أمانة فيه جدير بالإبعاد ، وألّا يول شيئًا من أمور المسلمين . وكانت هذه الحالة سببًا لتقريبه سليم واعتماده عليه وتفويض أموره إليه)

[١٩] (ماجور) هو الذي كان في ذلك الوقت يمتلك مصر كإقطاع خاص به ، وسلم إدارتها لصالحه إلي ابن طولون

[٢٠] كانت مع (نحرير)

برسالة شديدة اللهجة

ورد ابن طولون علي (الموفق) برسالة شديدة اللهجة عبَّر فيها عن غضبه وإليك بعض ما جاء فيها :

– بسم الله الرحمن الرحيم ، وصل كتاب الأمير أيده الله ، وفهمته ، وكان أسعده الله حقيقًا بحسن التخير له في اختياره مثلي ، وتصييره إياي عهدته التي يعتمد عليها ، وسيفه الذي يصول به ، وسنانه الذي يتقي الأعداء بحده ، لأني دأبت في ذلك ، فاحتملت الكلف العظام ، والموِّن الثِقال ، باجتلاب كل موصوف بشجاعة واستدعاء كل منعوت بغناء وكفاية ، بالتوسعة عليهم ، وتواصل الصلات والمعاون لهم ، صيانةً لهذه الدولة ، وذبًّا عنها ، وحسمًا لأطماع الشانئين لها ، والمنحرفين عنها ، وكان من هذه سبيله في الموالاة ، ومحله في المناصحة ، حريًّا أن يُعرف له حقه ، ويُوفّر من الإعظام قدره ، ومن كل حالٍ جليلةٍ حظُّه ومنزلته ، فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل المال مرة ، والجفاء في المخاطبة أخري ، بغير حال توجب ذلك ، ثم أكلّف علي الطاعة جُعْلًا ، وألزم للمناصحة ثمنًا ، وعهدي بمن استدعي ما استدعاه الأمير من طاعته يستدعي ذلك بالبذل والإعطاء ، والإرغاب والإرضاء والإكرام ، لا أن يُكلّف ويحمّل من أطاعه مؤونةً وثقلًا ، علي أني لا أعرف السبب الذي يُنْتِج الوحشة ، ويوقعها بيني وبين الأمير أيَّدَهُ الله ، ولا ثمَّ معاملة تُوقِع مشاجرة ، أو تُحدث منافرة ، لأن العمل الذي أنا بسبيله لغيره ، والمكاتبة في أموره إلي سواه ، وتقليدي ليس من قِبَله ولا ولايته ، فإنه والأمير (جعفر المفوض) أيدهما الله قد اقتسما الأعمال ، وصار لكل واحد منهما قِسم قد انفرد به دون صاحبه ، وأُخِذَت عليه البيعة فيه ، أن من نقض عهده ، أو خفر ذمته ، ولم يفِ لصاحبه بما أكد علي نفسه ، فالأُمة بريئة من بَيعته ، وفي حلٍّ وسعة من خلعه ، والذي عاملني به الأمير من محاولة صرفي مرَّة ، وإسقاط رسمي أخري ، وما يأتيه ويَسُومُنيه ، ناقض لشَرْطِه ، مفسد لعهده ، وقد التمس أوليائي ، وأكثروا عليَّ الطلب ، في اسقاط اسمه ، وإزالة رسمه ، فآثرت الإبقاء وإن لم يؤثره ، واستعملت الأناة وإن لم تُستعمل معي ، ورأيت الاحتمال والكظم ، أشبه بدوي المعرفة والفهم ، وأدني إلي الظفر والنصر ، فصبرت نفسي علي أحرّ من الجمر ، وأمرّ من الصبر ، وما لا يتسع له الصدر ، والأمير أيده الله أولي من أعانني علي ما أوثره من لزوم عهده ، وأتوخاه من تأكيد عقده ، بحُسن العِشرة والإنصاف ، وكشف الأذي والمضرة ، ولا يضطرني إلي ما يعلم الله عز وجل كُرهي له ، وإلي أن أجعل ما قد أعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة ، والعساكر المتضاعفة ، التي قد ضرّست رجالها من الحروب ، وجرت عليهم محن الخطوب ، مصروفًا إلي نقضها ، فعندنا وفي حَيْزِنا من يري أنه أحق بهذا الأمر وأولي من الأمير ، ولو أمِنوني علي أنفسهم فضلًا عن أن يرجعوا مني إلي ميل لهم ، أو قيام بنصرتهم ، لاشتدت شوكتهم ، ولصعب علي السلطان معاركتهم ، والأمير يعلم أن بإزائه منهم واحدًا قد أبرَّ

عليه ، وفَضّ كل جيشٍ أُنهِض إليه ، علي أنه لا ناصر له إلاّ لفيف (البصرة) وأوباش عامتها ، فكيف بمن يجد رُكنًا منيعًا ، وناصرًا مطيعًا ، وما مثل الأمير في أصالة رأيه قصد لمائة ألف عنان عُدَّة له فجعلها عُدَّة عليه بغير ما سبب أوجب ذلك ، فإن يكن من الأمير إعتاب أو رجوع إلي ما هو أشبه بفضله وأولي ، وإلّا رجوت من الله عز وجل كفاية أمره ، وحسم مادة شرُّه ، وإجراءنا في الحياطة علي أجمل عاداته عندنا ، والسلام

وأغاظه غيظًا شديدًا

فلما وصل الكتاب إلي (الموفق) أقلقه وبلغ منه مبلغًا عظيمًا ، وأغاظه غيظًا شديدًا ، وأحضر أشد أهل الدولة بأسًا وإقدامًا وحاول صرف ابن طولون عن مصر ولكن كل محاولاته باءت بالفشل ، فكلما كلف شخص من أصحاب القدرات الكبيرة ليحل محل ابن طولون أدركته الوفاة أو تم قتله علي يد أعداءه ، فقال من يحب ابن طولون من المؤرخين أن هذا يحدث بسبب إقباله وحظه ويُمن طالعه ، أما ابن طولون نفسه فظن أن هذا كله توفيق من المولي عز وجل ، فكان يتصدق بصدقات كثيرة

وعندما أيقن (الموفق) أنه لن يتمكن من إبعاد ابن طولون عن مصر قرر إبعاده عن الشام والثغور ، وكتب إلي (المعتمد) يقول :

– إن الثغور الشامية ضائعة ، وأنها تحتاج إلي من يقيم فيها ويغزو بأهلها ، وأن أحمد بن طولون مهمل لأمرها

يتولي أمر الثغور

فتم إرسال من يتولي أمر الثغور من أولي البأس فحدث لهم ما حدث لمن تم تعيينهم من قبل لإبعاد ابن طولون عن مصر فمات بعضهم وتم قتل بعضهم نتيجة لحدوث اضطرابات وقلاقل في الثغور ، وبلغ (المعتمد) ذلك فأنكره فدعت الضرورة إلي أن كتب إلي أحمد بن طولون في تدبير أمر الثغور ، وضبطها كما يري ، فلم يكن (للموفق) بعد ذلك حيلة في منعه منها

ثم حدث أن مات (ماجور) ، فلما بلغ ذلك ابن طولون حمد الله عز وجل علي ذلك ، واستخلف ابنه (العباس) علي مصر وخرج من وقته ، وأيّد ابنه بكاتبه ومحل ثقته (أحمد بن محمد الواسطي) ، ووصي (العباس) بالاقتداء برأيه ، والامتثال لأمره وألا يجاوز شيئًا يرسمه ، أو يشير به ، وسار في شوال من سنة أربع وستين ومائتين (يونيو٨٧٨م) ، وقد خلا قلبه من أعدائه الذين كانوا يعملون الحيّل في أمره وطلب

هلاكه ، وجدّ في السير ، وشخص إلي دمشق ثم إلي حمص ثم الثغور وضبط الأمور ، وأعاد الاستقرار وقام بتولية ولاة عادلين ترضي عنهم الرعية

وجدير بالذكر أنه كان من عادة ابن طولون أن يجعل في مجلسه دائمًا غلام يكتب كل ما يجري ، وكل ما يُقال ، ولا يُسقِط من ذلك شئ ، فإذا خلا عرض الغلام عليه مجملًا بما يجري يومًا يومًا وليلة ليلة ، وكذا كان إذا أنفذ رسولًا في حاجة برسالة ، قال له : أَعِد عليّ ما قلت ، فإن أعاده بالحرف أنفذه ، وإن قصَّر عن ذلك أستبدله بآخر

ورد عليه الخبر بخلاف ابنه (العباس) عليه

وكان أحمد بن طولون قد عمل علي أن يغزو قبل أن ينصرف من الثغر ، حتي ورد عليه الخبر بخلاف ابنه (العباس) عليه[٢١] ، وأخْذُه كل ما تهيأ له من المال والكُراع والسلاح ، وذهابه إلي الغرب ، وحمله معه (أحمد بن محمد الواسطي) كاتب أبيه مُكرهًا ، (وأيمن الأسود) مُقَيَّدين ، فانكفأ راجعًا إلي مصر ، قد حيّره ما دهاه من مأمنه ، ولكنه قبل مغادرته قام بضبط حدود ولايته وأطرافها فأرسل الجيوش إليها بقيادة خيرة رجاله (ابن جيغويه) (ولؤلؤ) غلامه ، وبعد أن ضبط أطراف عمله توجه إلي الفسطاط ، ليبادر أمر (العباس) ابنه وولي عهده

وكان سبب خروج (العباس) حمقه ونقصه ، وإنما قدَّمه أبوه علي سائر ولده لكبر سنّه ، فخانه أمله فيه وأتاه من المقدور ما ليس في خلده ، وهذا لصغر الدنيا عند الله عز وجل ، ولنزارة محلها ، ولينبه أولي الألباب علي مقدارها ، وأنها لا تدوم لأحد ولا تصفو له ، وإن حسن تدبيره ، وصح تمييزه ، وقيل هو واحد زمانه ، فكان خروج (العباس) هو أول انحلال أمر ابن طولون ، وذلك ولده وقرة عينه ، وأحب الأشياء كلها إلي قلبه ، والمُؤَمَّل لسد مكانه ، فكان كما قال الشاعر :

أُتيتُ في أمري من مأمني

أُتيتُ في أمري من مأمني – ولم أكن فيه بمُرتابِ

وقد يُوَقَّي ويلقي الردي – محترسٌ من ضعفِ أسبابِ

وذلك أنه اشتملت علي (العباس) ابنه طائفة سوء من صنوفٍ شتّي ، فمنهم قُوّاد استخلصهم ، واستحجب كثيرًا منهم ، كانوا يخافون أباه ويحسدونه بالنعمة عليه ، ويتمنون تلفها وزوالها ، ودخول النقص عليها ،

[٢١] تمرد علي أبيه وخرج عن الطاعة وقبض علي رجال والده المقربين وحبسهم

من أي وجه تهيأ له ، فأشاروا علي (العباس) بالخلاف علي أبيه والانحراف عنه ، وحسَّنوا له التغلب علي مصر والفتك بأحمد ين محمد الواسطي

واتُّفِق لهم أنه أُرجف بموت ابن طولون لما طالت غيبته بالثغور ، منهم عبد الله بن طغيا وأحمد بن صالح الرشيدي وأحمد بن القاسم بن أسلم وآخرين ، وكل هؤلاء كان لأحمد بن طولون عنده النعمة الجزيلة ، والإحسان التام ، إلا أن الحاسد لا دواء له ، ولا يُقنعه إلا أن يأتي علي نفس من يحسده

فلما حضر ابن طولون إلي مصر وجد أن العباس ابنه قد توجه إلي (برقة) بمن معه ، فحاول ملاينته لإعادته دون قتال فأرسل إليه الرُسل الحكماء والرسائل المشجعة ، ووعده بالعفو عنه إن عاد ، فلان قلبه

فخف الله فينا وفيك

وقرر العودة ، ولكن القادة الذين معه منعوه وحذّروه من بطش أبيه وشدة غدره وقالوا له

– الله الله فينا وفي نفسك ، انظر لنا ولك ، فأنت تعرف أباك وغدره ، فارحمنا وارحم نفسك ، فإنه يري أن في استئصال شأفتك ، بما السياسة وتوطيد المملكة توجبه ، فخف الله فينا وفيك

فلم يرجع إلي أبيه ، ثم دعته حماقته إلي التوجه غربًا إلي (تونس) ، ثقةً بما معه من المال والعُدة ، وحسَّن ذلك وأطمعه فيه أصحابه ، ليبعدوا عن أبيه ، وصغّروا عنده أمر (إبراهيم بن أحمد بن الأغلب) حاكم (تونس) ، ثم وقعت بعض المعارك بينه وبين البربر وكاد أن يُقتل أو يُؤسر ثم عاد إلي (برقة) بعد فشله في (تونس)

وشاع الخبر بمصر أن العباس قد قُتِل ، فتبيّن الناس في وجه أحمد بن طولون كآبة شديدة وغمًّا ظاهرًا ، ثم تبيّن له بعد ذلك سلامة العباس وأنه علي قيد الحياة فحمد الله جل اسمه وتصدق بمال كثير

ثم حدثت مراسلات بين العباس وأبيه وخرج ابن طولون إلي الإسكندرية وأرسل إلي ابنه الجيوش

والتقي بالواسطي الذي استطاع التخلص من العباس والفرار إلي مصر ، ثم لحق الواسطي بالجيوش التي هزمت جيش العباس وقتلت وأسرت منهم الكثير

انتهاء الفتنة

ثم أرسل الواسطي رسالة إلي ابن طولون يبشره بالنصر وانتهاء الفتنة ، وكان من الطبيعي أن يجعل ابن طولون ولاية العهد في ابنه الثاني (خمارويه) بدلًا من العباس

تنكَّر عليه (لؤلؤ) غلامه

ولما انقضي أمر (العباس) ابنه ، تنكَّر عليه (لؤلؤ) غلامه الذي كان أقرب غلمانه إلي قلبه محلّا ، لتتم مشيئة الله عز وجل فيه بانقضاء عمره وزوال ملكه ، كما يجري حكمه جلّ اسمه علي سائر خلقه ، عند انقضاء المدة ، وتنغيص العيش ، وإذا أراد الله أمرًا أتي بعضه يتلو بعضًا ليؤدب بذلك المؤمنين وينبه به المعتبرين ، ويخفف به عن قلوب المتقللين والله أعلي وأعلم

وقد قال بعضهم :

إذا ما كساك الدهرُ سِرْبال صحةٍ – ولم تخْلُ من قوتٍ يحلُ ويقربُ

فلا تغبطنَّ المترفين فإنه – علي قَدْر ما يكسوهم الدهر يَسْلُبُ

كاتب اسمه (محمد بن سليمان)

وكان (لؤلؤ) غلام ابن طولون له كاتب اسمه (محمد بن سليمان)[٢٢] نصحه بمكاتبة (الموفق) ومقابلته والدخول في طاعته ، فرأي الموفق أن (لؤلؤ) وكاتبه يصلحان للقضاء المبرم علي دولة ابن طولون عدوه اللدود

فلما وصل خبر ما حدث لأحمد بن طولون تكدّر عليه مشربه ومرَّ مذاقه الذي كان يستحليه ، لنكد الدنيا وأيامها ، كما قال ابن الرومي :

تَذَكَّر ساعةً أُلْعقت فيها – وأنت وليدها عسلًا وصبرا

لتعلم أن هذا الدهر يُمسي – ويُصبح طعمه حُلوًا ومُرا

وقرر ابن طولون أن يدعو الخليفة (المعتمد) للحضور إلي مصر واتخاذها مقرًا له ، ليبعده عن أخيه الذي يتلاعب به فأرسل له رسالة سنة ٢٦٨هـ إليك بعض ما جاء فيها

قد منعني الطعام والشراب والنوم

قد منعني الطعام والشراب والنوم خوفي علي أمير المؤمنين من مكروه يلحقه ، مع ما له في عنقي من الأيمان المؤكدة ، وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان أنجاد ، وأنا أري لسيدي أمير المؤمنين الانجذاب إلي مصر ، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلي نهاية العز ، ولا يتهيأ لأخيه فيه شئٌ مما يخافه عليه منه في كل لحظة ، فإن رأي أمير المؤمنين ، أيده الله ذلك صوابًا قَدّمه إن شاء الله وأظهر الخروج لهذه القصبة

وكان ابن طولون قد سأل صديقه المقرب أحمد الواسطي في هذا الأمر فقال له :

---

[٢٢] حمد بن سليمان الكاتب هو من قضي بعد ذلك علي الدولة الطولونية وأحرق مدينة القطائع عاصمتها عدا الجامع فقط

– أليس الرأي عندك أن أخرج بجميع جيشي وعُدّتي كلها حتي أنتشل أمير المؤمنين من تلاعب أخيه (الموفق) به وأنقل كرسي الخلافة إلي مصر[٢٣] ؟ فإن بيعته التي في عنقي تقتضي هذا له مني ؟

فأجاب الواسطي :

– ما تبلغ معرفتي وفهمي الكلام في هذا الباب ، ولكن في محبسك من إن أحضرته واستشرته أشار ، لفهمه ورجحان عقله ، عليك بالصواب

– ومن هو هذا ؟

– أحمد بن اسماعيل بن عمار

– صدقت إنه لكذلك ، ولولا نفوري منه لخوفي من غوائله ودهائه ، لما كان بحيث هو ، وكان معي في أجل حال ، فأحضرنيه

فلما حضر ، وكان بملابس السجن الرثة ، وقد طال شعره وساء حاله ، فطلب منه ابن طولون أن يقترب منه فقال ابن عمار :

ما أرضي رائحتي للأمير

– ما أرضي رائحتي للأمير أيده الله

فقال له ابن طولون :

– دعوتك لأستشيرك في أمر أردت أن أفعله ، لعلمي بجودة رأيك ، وصحة فهمك

فقال ابن عمار

– أين الرأي مني اليوم ، أيها الأمير ، وهذه حالي ؟

– أنت أوفي رأيًا ، وأذكي قلبًا ، من أن يختل عليك ما التمسته منك ، أو يعتريك ما يعتري ذوي النقص

– يقول الأمير أيده الله ما شاء ، والله جل اسمه الموفِّق

فعرض عليه ابن طولون الأمر ، فنصحه ابن عمار بعدم الخروج بالجيش فهو من الخطر العظيم وكذلك عدم دعوة الخليفة للحضور إلي مصر ، وقال أن هذا سيُقلل من مكانته في البلاد لصالح الخليفة ، وسيصبح تابع وليس متبوع ، ومما قاله له :

[٢٣] الجدير بالذكر أنه إذا كان ابن طولون ثم من بعده الإخشيد قد أخفقا في جعل مصر مركزاً للخلافة العباسية ، فإن ذلك الأمر قد تم بالفعل فيما بعد علي يد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في سنة ٦٥٩ هـ " ١٢٦١م

– أرأيت أيها الأمير لو انتقل إليك الخليفة ، وتمت للأمير حمايته من أخيه ، وأجابك إلي ما دعوته إليه ، أكان له في قصرك دار يسكنها غير دارك ؟ فأول ما يستعجل الأمير أن ينتقل عن هذه الدار إلي ما لا يقاربها ولا يدانيها ، بل يضيق بمن يحوطه ، ثم يكون الأمير إذا دخلها كبعض الزوار ، وأقل ما في هذا الباب أنه إذا دخل الأمير للسلام يكون قائمًا ونديم الخليفة جالسًا لموضعه منه ، ثم لا يأمن الأمير أن يسأله أحد المقربين من الخليفة ضيعة من ضياعه أو وظيفة فيها أخص رجال الأمير فلا تمكنه مخالفته ثم اعتراضات حاشيته في البلد وطلبهم ما يشق علي الأمير ويعظم ، فلا يتهيأ له منعهم

فقال له ابن طولون :

– حسبُك حسبُك

وأمر برده إلي محبسه

فقال أحمد الواسطي :

– أيها الأمير أكان جزاء هذا الرجل علي هذا الرأي السديد الصحيح الذي قال فيه الحق ومحض النصيحة ، أن يُرد إلي محبسه ؟

نصحني في دنياي ، وغشني في ديني

قال ابن طولون :

– نعم ، إني تأملت أمره ، فوجدته قد نصحني في دنياي ، وغشني في ديني وآخرتي ، ثم تأملت رأيه وجودته وصحته ، وما حضره منه بغير فكر ولا استعداد ، وهو علي هذه الحال الصعبة القبيحة المفنية للحِس ، فضلًا عن غيره ، فكيف لو رأي نفسه مُطلقة ، وهو نافذ الأمر والنهي ، يأكل طيبًا ويلبس لينًا ، ويشم عطرًا ، إذًا لبعد غوره ، وتمكن من عدوه ، بقوة حيلته ، وحزم رأيه ، إن أجهل الأمراء من أعطي قيادته للكُتّاب العقلاء ، لأنهم أسد الناس رأيًا وأقلهم دينًا ، بل يقبل رأيهم من غير أن يُظهر لهم فيه استصابه

قال الواسطي عندما حكي هذا الموقف

– فعجبت من قوله ، وازددت حذرًا له وخوفًا منه ، وكان ابن عمار البائس قد ظن بإخراجه إياه إليه ، ومشاورته له وما محضه من النصيحة في مشورته ، أن في ذلك فرجه وخلاصه ، وانحلال عقدته ، فلما ردّه إلي الحبس أيس مما كان يتوقعه من الفرج ، وصدع قلبه الغم فمات

وورد كتاب من (طيفور)[٢٤] وهو بمثابة عين ابن طولون في الحضرة ، يذكر وصول رسول ابن طولون ورسالته إلي (المعتمد) والمال ، وأن (المعتمد) خارج إليه وقرر المسير إلي مصر وقبول الدعوة ، ويذكر في كتابه أن يتأهب لموافاته إليه كما استدعاه

خروج ابن طولون إلي الشام

فلما قرأ ابن طولون الرسالة أحضر ابنه الثاني ولي عهده (أبا الجيش خمارويه) فاستخلفه علي البلد ، وخلف معه جماعة من كبار قواده ووصّاه بإتباع أمرهم ووصّاهم به ، وخرج إلي الشام ، وحمل معه ابنه (العباس) مُقيَّدًا ، وهو يُظهر في قوله وفعله أن خروجه لنصرة الخليفة (المعتمد) ، والكامن في صدره (لؤلؤ) غلامه ، والله أعلم بما في الصدور

وكان قد استقر عند ابن طولون أن (الموفق) قد أرسل إلي (لؤلؤ) الخِلَع ، وكان محمد بن سليمان كاتب لؤلؤ من أحذر الناس من أحمد بن طولون ، وأشدهم فزعًا منه

فلما بلغ ابن طولون دمشق ، وشاع الخبر بحركة (المعتمد) بمن خف معه من ثقاته إلي مصر ، ووصلت لابن طولون رسالة تؤكد ذلك ، اضطرب أمره وتندم علي دعوته لحضور الخليفة ، وشعر أن كل ما قاله ابن عمار سيحدث بالفعل ، وقلق لذلك وتصبرله ، حتي أتي من حسن حظه ويمن طالعه وإقباله ما لم يكن في حسابه ، حيث ورد عليه كتاب (طيفور) –عينه وخليفته– يقول :

– قد كنت علي المسير إليك مع أمير المؤمنين (المعتمد) حتي جري ما أوجب تأخره ، فتأخرت بتأخره ، وأرجو أن تكون الخيرة للأمير أيده الله في ذلك إن شاء الله

وذلك أنه لما قرأ كتابك ، ووقف علي ما دعوته إليه من المسير إلي ناحيتك ، سره ذلك وشكره لك ، وأظهر الخروج إلي النزهة ، واصطحب جماعة من ثقاته وقصد المسير إلي مصر ، فلما وصل الخبر للموفق أرسل له إسحاق بن كنداج ووعده بمكافأة كبيرة إن رد المعتمد وكان إسحاق شخص ذو حُجة كما أرسل معه أربعة آلاف مقاتل فأدركه في الموصل ومنع حشمه من الوصول إليه ثم قابله وطلب منه العودة إلي بغداد فقال له المعتمد :

– يا إسحاق لِم منعت الحشم من دخول الموصل ؟

– يا أمير المؤمنين وما دخول الحشم الموصل ؟

– لأني آثرت دخولها

---

[٢٤] كان (طيفور) موجود في الحضرة ببلاط الخليفة في بغداد ويراسل ابن طولون ويخبره بكل ما يحدث في الحضرة ، وكان ابن طولون يراسله ويهب له الهدايا والأموال ، واتفق معه علي أن يذكره بسوء حتي لا يشك فيه أحد في الحضرة

– لا والله أيد الله أمير المؤمنين ما إلي ذلك سبيل ، أخوك في وجه العدو ، عدوك وعدو دولتك ، يقف علي زوالك عن مستقرك ، ومدينة آبائك ، فينصرف عن مقاومته ، ويُخلي بينه وبين دار ملكك ، وبهذا جاءني كتابه

أفغلامي أنت أم غلامه ؟

– أفغلامي أنت أم غلامه ؟

– كلنا يا أمير المؤمنين غلمانك ، ما أطعت الله ، فإذا عصيته فلا طاعة لك علينا

– وما معصيتي ؟

– تخليك عن دار ملكك ودار آبائك ، وتركك آخاك ، وهو مجاهد عنك وعن دولتك ، لعدوك ، فتظعن عن مستقرك ، وفي هذا عصيان الله عز وجل

ثم عاد المعتمد إلي مدينة (سر من رأي) مع إسحاق بعد أن طلب منه أن يحلف له علي أن لا يسلمه لأحد ، وقد قال المعتمد في ذلك

أصبحت يملكني من كنت أملكه وصار يأمرني جهرًا وينهاني

وصرت في حَجره طفلًا يروّعني أخشاه حقًا كما قد كان يخشاني

فالحمد لله شكرًا لا شريك له علي الذي خصّني منه وأولاني

وتم تحديد إقامة الخليفة ومنعه من الحركة ومن أن يدخل إليه أحد ، وتم حراسته بقوة من خمسمائة مقاتل ومعهم قائد ، فقال له الخليفة يومًا :

– ما أنت ؟

– أخدم أمير المؤمنين

– هذا توكيل مليح

ومن طريف ما يُروي في هذا الباب ما أورده المؤرخ ابن الأثير في كتابه الشهير (الكامل في التاريخ) حيث قال : كان (المعتمد) في خلافته محكومًا عليه ، قد تحكم عليه أخوه (الموفق) وضيّق عليه حتي أنه احتاج في بعض الأوقات إلي ثلثمائة دينار فلم يجدها ذلك الوقت فقال :

أليس من العجائب أن مثلي – – – يري ما قل ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا – – – وما من ذاك شئ في يديه

إليه تحمل الأموال طراً – – – ويمنع بعض ما يجبي إليه

وبعد نجاح إسحاق بن كنداج في مهمته عندما أعاد الخليفة إلي مدينة (سر من رأي) وقام بتحديد إقامته فيها ، قام الموفق بتعيينه كبديل لابن طولون في مصر مكافأة له ، كما منحه كل ضياع القادة الذين كانوا مع الخليفة

فاستفتاهم في خلع أبي أحمد الموفق

فلما وصلت كل هذه الأحداث إلي علم ابن طولون وهو في دمشق وتواترت الأخبار بها ، أحضر القضاة وفيهم العمري وأبو حازم وبكار بن قتيبة فاستفتاهم في خلع أبي أحمد الموفق ، فالكل أفتاه بخلعه إلا بكار بن قتيبة فإنه تلكأ في ذلك ، فتغافل عنه ابن طولون وحقدها له في نفسه ، وكتب كتاب الخلع من عدة نسخ وأرسلوا إلي كل بلد من البلاد نسخة لتُقرأ علي المنابر ، وكان ذلك سنة ٢٦٩هـ ، وأهم ما جاء في فتوي الخلع أن الناكث (الموفق) قد قام بأسر الخليفة وحبسه ونقض ما أكدت عليه البيعة ، وفارق الطاعة ، ومنع حقوقًا ثلاثة ، أولها حق الإمامة ، والثاني حق الأخوة ، والثالث حق النعمة عليه

فكان كل من يعتلي المنبر من الخطباء ممن وصلته فتوي الخلع يقول بعد أن يدعو للخليفة (المعتمد) :

– اللهم استنقذه ممن أسره وجار عليه ، يقصد بالطبع (الموفق)

فلما بلغ الموفق ما عمله ابن طولون من إسقاط اسمه وترك الدعاء له ، أمر بلعنه علي المنابر ، وخرجت براءة بلعنه إلي سائر الأمصار جميعًا ، ومما جاء فيها : إن عدو الله المباين لجماعة المسلمين المعروف بأحمد بن طولون ، أظهر ما كان منه من معصية وشقاق ، ومرق من الدين ، وخالف أمير المؤمنين ، فلما تبين أمير المؤمنين أمره ، وعرف كُفره ، تبرأ منه إلي الله عز وجل ولعنه لعنًا ظاهرًا ، وأمر بلعنه

ثم حدث أن قرر الموفق مهادنة ابن طولون ومحاولة تحسين العلاقات معه ، فطلب من كاتبه وجماعة من خاصته بمكاتبة أحمد بن طولون ، وتوبيخه علي المبادرة بخلعه ، وإسقاط اسمه ، ويقولون :

إنه إنما كان يجب أن تفعل ذلك لو رأيت بالخليفة حادثًا ، فأما ولم يجر إلا منع أمير المؤمنين من فعل شئ آثره ، لو بلغه لعاد عليه وعلي مملكته ضرر ، فذلك غير منكر يوجب ما تسرعت إليه ، لأنه ليس قادحًا في يمين ، ولا مخرجًا عن بيعة ، ولا عادلًا عن طاعة ، وأنت تعلم أن خواص الملوك يردون أمرهم في كثير مما يحبونه احتياطًا لهم وعليهم ، ولا يخرجون به عن طاعة ، ولا يحنثون في بيعة ، وأنه قد كان يجب عليك أن تصون نفسك عن سوء الظن بنا ، في أننا نستجيز أن نُحدث في أمير المؤمنين حادثة ، نبرأ إلي الله الكريم منها ، ويحلفون أن اللعن الذي خرج عن غير إرادة مني ولا محبة ولا اختيار ، وأني لكاره لما جري من ذلك ويشيرون عليه بأن يكاتبني بما يزيل به ما قد وقع بيننا وبينه

وكتب بما أمرهم به إليه عن أنفسهم ، وحلفوا له علي كراهية الموفق لما جري من اللعن وغيره ، ويقولون في كتبهم إليه إن الأحسن بك والأجمل ، لما خصك الله به من الفضل ، والمحل الجليل ، والمروءة المقرونة بالدين ، أن تكتب إليه تذكر فيه ما أنت مؤثر له من طاعته ، وما توجبه من حقه ورعايته ، وما يشاكل ذلك مما أنت بجميل فعلك ووافر تحصيلك ، أهدي إليه إن شاء الله

وضُمّنت الكتب ما لا زيادة عليه من استعطافه ، وما يبعثه علي إجابتهم إلي ما حبوه ، وأنفذت إليه بذلك

فَسَرَّهُ ذلك

فلما وصلت الكُتُب إلي أحمد بن طولون ، علم أنهم لم يكتبوا إلا بما اختاره الموفق وأمرهم به ، فسره ذلك ، وأجابهم وأكد لهم مكان ومكانة الموفق بالنسبة له وأنه سيده ، وشرح في كتابه وجهة نظره وموقفه من الخليفة وأنه علي الطاعة للموفق

وانتهت المشكلة وتوقف لعن ابن طولون وعاد الدعاء للموفق الذي بدوره ترك الخليفة وشأنه ليفعل ما يريد وقتما يريد إكرامًا لابن طولون ، كما أرسل الخليفة كتابًا إلي ابن طولون ليشكره علي موقفه منه

وعادت الأمور إلي ما كانت عليه بل أفضل

بازمار الخادم يستولي على حكم طرطوس

وتوفي أحمد بن طولون في 10 ذو القعدة 270 هـ الموافق 10 مايو884 ، وكان سبب موته أن بازمار الخادم استطاع أن يستولي على حكم طرطوس التابعة لسلطان ابن طولون، وقام بالقبض على نائب ابن طولون فيها، وعصى ابن طولون وأظهر له الخلاف، فجمع أحمد بن طولون العساكر وسار إليه، فلما وصل كاتبه وراسله يستميله، فلم يلتفت إلى رسالته، فسار إليه ابن طولون، ونازله وحاصره، فخرق بازمار نهر البلد على موقع عساكر ابن طولون، فكاد الناس يهلكون، فرحل أحمد مغيظًا حنقًا، وأرسل إلى بازمار:

– «إنني لم أرحل إلا خوفاً أن تنخرق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو»،

فلما عاد إلى أنطاكية أكل لبن الجواميس، فأكثر منه، فأصابه منه عِلّة (هيضة) وكان الأطباء يعالجونه، فلم ينجح الدواء، فتوفي وخلفه ابنه خمارويه وأطاعه القادة،

خمارويه بن أحمد بن طولون

وقد أكد العديد من المؤرخين أن خمارويه لم يكن علي نفس مستوي أبيه من القوة والعظمة بل الفترة التي جاءت بعد ابن طولون كانت تشبه السير بالقصور الذاتي حيث أن العجلة التي أدارها ابن طولون بقوة لم

يعد أحد بعده يديرها بل ظلت تدور تأثراً بقوة ابن طولون فقط إلي أن توقفت تماماً وانهارت الدولة ، ولأن ابن طولون أسس دولة قوية وأدار العجلة بقوة دفع ضخمة فقد ظلت تدور فترة ليست بالقصيرة حتي توقفت تماماً ، وغاية ما يقال عن خمارويه أنه كان مسرفاً إلي حد ما (– – ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الأموال الجمة التي تركها له أبوه فأخذ يسرف في البناء وأنواع الترف – –)٢٥ ، وكان الخليفة العباسي المعتمد قد مات هو وأخوه الموفق وخلفه الخليفة المعتضد بالله بن الموفق ، واهتم خمارويه باكتساب ود الخليفة العباسي الجديد وعرض عليه (– – زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندي من ابن الخليفة ولكن الخليفة اختارها لنفسه فوافق أبوها علي ذلك وجهزها بجهاز يفوق الوصف مما أدي إلي إفلاس مصر وقد أفاضت المصادر في وصف جهاز العروس – –)٢٦

– قطر الندي التي يتردد ذكر اسمها في أغنية شعبية شهيرة حتي الآن ؟

– نعم

ويقال أن خمارويه أمر ببناء قصر علي رأس كل مرحلة من مراحل المسافة بين مصر وبغداد لتقيم فيه ابنته أثناء سفرها إلي الخليفة (– – مجهز بكل وسائل الراحة والرفاهية كأنها في قصر أبيها في مدينة القطائع إلي أن وصلت بغداد ودخل بها الخليفة المعتضد في ربيع الآخر سنة ٢٨٢ هـ (مايو ٨٩٥ م)٢٧ وغاية ما يقال عن عصر خمارويه وما بعده وحتي انتهاء الدولة الطولونية ما قاله الكاتب محمود السعدني عن ابن طولون وأولاده (– – فلما مات ماتت دولته كذلك وإن بقيت أمام الناس فترة من الوقت ولكن الذي قام لم يكن دولة ابن طولون ولكن شبح الدولة وصدي الصوت القوي الذي كان يتردد في جنباتها يوماً ما غير بعيد –)٢٨ ،

– يا لها من فترة قصيرة في تاريخ مصر ، ويبدو أن أبناء أحمد بن طولون يصلحون كأمثلة للأبناء الذين لا يحسنون المحافظة علي ملك الآباء

– نعم

وقد كتب الشعراء قصائد من الشعر حزناً علي سقوط الدولة الطولونية كما ذكرتها لك وأذكرك بها من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي :

قف وقفةً وانظر إلي الميدان والقصر ذي الشرفات والأيوان

---

[٢٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١١
[٢٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١١
[٢٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١١
[٢٨] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٢٥

والجوسق العالي المنيف بناؤه ما باله قفر من السكان

فانظر إلي ما شيدوا من بعدهم هل فيه غير البوم والغربان

أين الألي حفروا العيون بأرضه وتأنقوا فيه وفي البنيان

غرسوا صنوف النخل في ساحاته وغرائب الأعناب والرمان

والزعفران مع البهار بأرضه والورد بين الآس والريحان

كانوا ملوك الأرض في أيامهم كبراء كل مدينة ومكان

فتمزقوا وتفرقوا فهناك هم تحت الثري يبلون في الأكفان

والله وارث كل حي بعدهم وله البقاء وكل شئ فان

- **فماذا حدث بعد ذلك ؟**

نهاية الدولة الطولونية

- مات خمارويه ، وسادت الفوضي بعد موته وأصبحت مصر غير قادرة علي السيطرة علي ممتلكاتها في الشام وغيرها

وجاء ثلاثة من الطولونيين حكموا مصر لمدة قصيرة ، بلغ فيها الضعف ما بلغه مما أدي إلي انهيار الدولة حيث كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت يراقب ما يحدث في مصر ويتابع ما يدور بها وقرر استعادة السيادة الكاملة والسيطرة المطلقة علي مصر عندما وصل بها الحال إلي ما ذكرناه من ضعف وفوضي واضطرابات[٢٩] ، وكان الخليفة العباسي الموجود في ذلك الوقت هو المكتفي بالله ابن المعتضد بالله وقام المكتفي بالله بإرسال جيش وأسطول إلي مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب للقضاء علي الطولونيين حيث أوقع الهزيمة الساحقة بهم بحراً وبراً وقام محمد بن سليمان الكاتب بحرق مدينة القطائع عاصمة الدولة الطولونية ما عدا الجامع الكبير بها والموجود إلي الآن والذي يُعتبر الشاهد الوحيد علي مدينة القطائع وحضارتها وجمالها

- مات ابن طولون إذن دون أن يعرف أن مدينته الرائعة ستحترق ، سبحان الله ، فماذا حدث بعد سقوط الدولة الطولونية وعود السيطرة الكاملة للعباسيين علي مصر ؟

- تولي حكم مصر (١١) والياً خلال ثلاثين سنة[٣٠] وهي الفترة بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية

---

[٢٩] لاحظ معي عزيزي القارئ أهمية الحاكم القوي في استقرار الأمور ومدي تأثر البلاد بالحاكم الضعيف إلي درجة انعدام النظام فيها

[٣٠] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٨٢

(- - وكانت تجربة ابن طولون ودولته قد فتحت العيون علي ما يمكن أن تقدمه مصر لمن يتولاها من إمكانيات فهي قاعدة عسكرية اقتصادية كبري - لذلك حرص الأذكياء من الولاة أن يثبتوا أقدامهم فيها ولكن لم يتمكنوا من ذلك لحرص الخلفاء العباسيين ووزراءهم علي تغيير الولاة بكثرة في مصر في ذلك الوقت حتي لا يتمكن أحد الولاة من الاستقلال بها لذلك نجد عدد الولاة في مدة ٣٠ سنة ١١ والي وهو عدد كبير بالنسبة لهذه المدة القصيرة نسبياً إلي أن جاء الإخشيد عندما أسس في مصر دولة شبه مستقلة ذات قوة لا يستهان بها وأورثها لأربعة من ذريته -)٣١ ، وكانت الفترة بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية قد شهدت صراع مرير وعنيف بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية التي أسسها الفاطميون في المغرب ، ولم تسلم مصر من هذا الصراع بل إنها كانت مسرحاً للمعارك بين الجانبين (- - ولا شك أن وقوع الصدام أكثر من مرة علي أرض مصر بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية قد أنزل كثيراً من الأضرار بالمصريين وعرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود فساءت أحوال البلاد وتعرضت مرافقها للإهمال - -)٣٢ إلي أن قامت الدولة الإخشيدية ليعود الاستقرار إلي مصر مرة أخري ،

وإلي هنا توقف الأب عن الكلام والقراءة ليري تأثير ما قاله علي ابنه ومدي استيعابه لكل ما سبق ، وليعرف إن كان لدي ابنه أي أسئلة أو استفسارات ، فسأله :

- هل لديك يا بني أي استفسار ؟

- نعم يا أبي ، أريد معرفة قصة الحلم الذي رآه ابن طولون بخصوص حرق مدينته ؟

الحلم

- إنها حكايات وأقاويل غير مؤكدة ، وعلي أي حال يحكي كتاب «القاهرة: جوامع وحكايات»، أن ابن طولون كان يصلي في مسجد شديد الضيق، ولهذا قرر أن يبني المسجد، وهناك حلم من أحلام أحمد بن طولون، ربما كان سببا في بناء واحد من أهم مساجد القاهرة، مسجد أحمد بن طولون، حيث رأي ابن طولون أن الله تعالى تجلى لجميع القصور المحيطة بموضع جامعه، ولم يتجلى للجامع، ففسر له المفسرون «يخرب ما حول الجامع، ويبقى قائما وحده»، وعندها بني المسجد، وبعد بنائه رأي ابن طولون حلما آخر أن نارا عظيمة التهمت المسجد، فبشره المفسرون لما قص عليهم الحلم أنه تقبل من الله، حيث كانت النار رمزا لقبول القربان في الماضي، ويُعتبر جامع أحمد بن طولون شيخ جوامع القاهرة بلا نزاع، إذ

---

[٣١] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٨٢

[٣٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٢٥

أنه أقدم مسجد باقي على حالته الأصلية بشكل كامل مع بعض الإضافات المملوكية، على عكس جامع عمرو بن العاص الذي محت التجديدات والتوسعات معالمه الأصلية تماماً، وقد أنشأه الأمير أحمد بن طولون في الفترة بين عامي 263 هـ. 265 هـ، وقد أنفق أحمد بن طولون ١٢٠ ألف دينار في بنائه على مساحة ستة أفدنة ونصف، ويشعر زائره برهبة وخشوع عظيم، ومما يسترعى انتباه الزائر مئذنة الجامع بمظهرها الفريد في العمارة الإسلامية بمصر وهذه المئذنة تتألف من قاعدة مربعة تقوم عليها ساق أسطوانية يلتف حولها من الخارج سلم دائري لولبى عرضه ٩٠ سم، ويعلو الساق الأسطوانية للمئذنة طابقان مثمنان تتوسطهما شرفة بارزة تحملها مقرنصات، وهذان الطابقان المثمنان من الطراز المعمارى الشائع في عصر المماليك. ولقد بنى هذا المسجد مهندس مسيحي يدعي سعيد بن كاتب الفرغاني، وقد قال له أحمد بن طولون :أريد مسجد إذا احترقت مصر بقى وإذا غرقت بقى، وبالفعل حدث هذا

تمت

،

كتب للمؤلف

رواية شياشكو– دار كليوباتر للنشر والتوزيع–

رواية أحلام قلاوون– دار كليوباترا للنشر والتوزيع

رواية اعترافات خاين بك– دار تويتة للنشر والتوزيع

كتاب أحوال المماليك في مصر– دار إضافة للنشر والتوزيع

رواية أنا والباشا– المكتبة العربية للنشر والتوزيع

كتاب من مذكرات الضباط الأحرار– تاريخ مصر من حادث ٤فبراير إلى حادث المنصة– دار كليوباتر للنشر والتوزيع

كتاب مات الملك عاش الملك – المكتبة العربية للنشر والتوزيع

كتاب عزيز مصر محمد علي باشا– دار كليوباترا للنشر والتوزيع

كتاب من الاسكندر الاكبر الي كليوباترا – دار كليوباترا للنشر والتوزيع

كتاب أيام أفندينا– دار كليوباترا للنشر والتوزيع

كتاب سلاطين وبكوات – دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع

كتاب أحوال الدولة الفاطمية في مصر– دار إضافة للنشر والتوزيع

كتاب شارع المعز لدين الله الفاطمي

كتاب من كتابات المؤرخين عن عصر الفراعين

كتاب قرأت لك فقرات من كتب ممتعة

رواية القاهرة ١٩٣٦

رواية ولي النعم

رواية عودة الجبرتي

المحتويات

Contents

المئذنة الحلزونية ٣

الأمير أبو العباس التركي ٥

ضعف العباسيين ٦

الأتراك هم أصحاب القوة والنفوذ..... ٦

ولولا خوفي عليه قرّبته" ٧

ابن طولون رجل دولة ٩

يُؤثِر الوقار..... ١٠

وسلِ الرحمن منه العافية..... ١٠

استبدل المال بالرجال..... ١١

حييًا رقيق الوجه ١٢

فأصبح لديه جيش كبير ١٣

القطائع غاية في الفن الهندسي..... ١٤

رغيف ودجاجة ١٥

يدعوه للحضور إلي بغداد ١٦

لا فائدة من الوشاية..... ١٦

من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر ١٧

كان يزهد في فضول الأموال ١٨

يعثر علي مبلغ ضخم من المال (كنز)..... ١٩

هذا أول بركة مشورة الميت في النوم..... ٢٠

كان (المعتمد) لا يعلم ما في طوية (الموفق) ٢٠

استفحل أمر العلوي البصري وطالت محاربته ٢١
(نحرير) الخادم عينًا عليك ٢١
وسلم المال إليه ٢٢
إن الحساب يوجب أضعافه ٢٢
برسالة شديدة اللهجة ٢٣
وأغاظه غيظًا شديدًا ٢٤
يتولي أمر الثغور ٢٤
ورد عليه الخبر بخلاف ابنه (العباس) عليه ٢٥
أُتيتُ في أمري من مأمني ٢٥
فخف الله فينا وفيك ٢٦
انتهاء الفتنة ٢٦
تنكَّر عليه (لؤلؤ) غلامه ٢٧
كاتب اسمه (محمد بن سليمان) ٢٧
قد منعني الطعام والشراب والنوم ٢٧
ما أرضي رائحتي للأمير ٢٨
نصحني في دنياي ، وغشني في ديني ٢٩
خروج ابن طولون إلي الشام ٣٠
أفغلامي أنت أم غلامه ؟ ٣١
فاستفتاهم في خلع أبي أحمد الموفق ٣٢
فَسَرَّهُ ذلك ٣٣
بازمار الخادم يستولي على حكم طرطوس ٣٣
خمارويه بن أحمد بن طولون ٣٣

نهاية الدولة الطولونية ٣٥

الحلم ٣٦

كتب للمؤلف ٣٨

المحتويات ٣٩